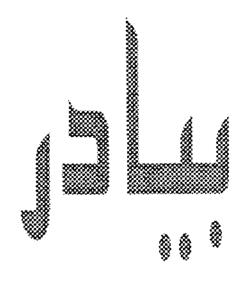
بسم الله الرحمن الرحيم





ملف ثقافي إبداعي يصدر عن نادي أبها الأدبي
العدد العشرون . محرم ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

نادي أبها الأدبي - أبها - ص .ب ٤٧٨ - تليفون : ٠٧٢٢٤٤٢١٠ / ٠٧٢٢٦٣٥٩٧
فاكس : ٠٧٢٢٦٢١٦٥ - المملكة العربية السعودية
PUBLISHEDBY ABHA LITERARY CLUB P.O Box : 478 Tel : 072244210 \ 072263597
Fax : 072262165 ABHA . SAUDI ARABIA

رقم الإيداع: ١٤/٠٠٥٣
ردمـــك : ١٣١٩ - ٣٥٠ ISSN



محتويات العدد العشرين من ملف النادي بيادر (٢٠)

إشـــــارات

المشرف العام

* يحرص النادي على تجديد الدماء بين أعضائه العاملين في مجلس إدارته واللجان المساندة من أجل تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص بين الأدباء والمثقفين في مزاولة الهم الثقافي .

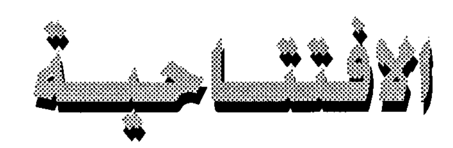
* وقد مرّت التجربة على (بيادر) منذ العدد الأول حيث تعاقب على تحريرها عدد من الشباب الذين أدوا المطلوب منهم على خير وجه وتركوا المجال لإخوان آخرين ليواصلوا المسيرة الإبداعية ويتركوا بصماتهم في ذاكرة النادي مديد العمر إن شاء الله .

* «وبيادر» منذ هذا العدد تحاول التغيير إلى الأفضل من حيث الشكل والمضمون بجهود لجنة تحريرها الجديدة، والتي تحمل كثيراً من الطموحات لتقديم أجمل ما عندها للقارىء الكريم.

* الآمال عريضة لإصدار (بيادر) ربع سنوية ثم تتدرج في تخفيض المدة وصولاً إلى أن تكون شهرية إذا توفرت الإمكانات الطباعية المحلية ، وذلك أن الآلية الحالية مكلفة مادياً إلى جانب استغراق وقت أطول لتصحيح « البروفات » والإجراءات الأخرى حتى تكون المجلة جاهزة للقراءة .

* نكرر دعوة طالما ألححنا عليها موجهة لكل المثقفين من الجنسين للإسهام في هذه المطبوعة والتواصل معها بالجديد المفيد من أجل ضمان استمراريتها والإفادة من الجهود المبذولة فيها ..

* قراءنا الأعزاء .. افتحوا معنا أبواب الأمل وشاركونا العبء من أجل نهضة فكرية سعودية متميزة . . واعلموا أن الحياة من قبل ومن بعد أخذ وعطاء .


الافتتاحية

« الافتتاحية »

رئيس التحرير
د / غيثان بن علي بن جريس

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وبعد:

فهذا العدد العشرون من ملف « بيادر » ، الذي استمر في الصدور منذ حوالي اثنتي عشرة سنة ، وقد تنوعت الأعداد التسعة عشرة السابقة لهذا العدد من حيث نوع المادة المنشورة والأبواب الثابتة في كل عدد ، وهيئة التحرير ، وطبقاً للتغييرات التي أجرتها إدارة النادي منذ سنتين (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ، والتي نتج عنها توحيد أنشطة النادي في ثلاث لجان مساندة لمجلس الإدارة ، وإحدى تلك اللجان : لجنة الطباعة والنشر والتي من مهامها الإشراف على تحرير ملف بيادر ، وكان من شروط التغييرات التي جرت في عام ١٤١٥هـ ، أن يعاد النظر في تشكيل أعضاء اللجان المساندة كل عامين ، وقد انتهى العامان في شهر رجب من عام ١٤١٧هـ (١٩٩٦م) ، وجدت بعض التعديلات مثل استبدال بعض أعضاء اللجان بأعضاء آخرين . ونحن في بدء صفحات هذا الملف نشكر جميع الإخوة الذين عملوا في اللجان في مسيرتها الجديدة ، وندعو لهم بالتوفيق والنجاح كما نرحب بالإخوة الزملاء الذين انضموا إلى اللجان في مسيرتها الجديدة وندعو لهم أيضاً بالتوفيق والسداد . نشكر الإخوة الزملاء الذين ساندونا في تحرير هذا الملف وهم : الأستاذ الدكتور / علي بن يحيى العريشي ، والدكتور / طلال بن حسن بكري ، والدكتور / علي بن عيسى الشعبي ، ونسأل الله لنا ولهم التوفيق ، كما نرحب بالزميل الأستاذ / عبد الرحمن بن حامد القرني الذي انضم إلى هيئة التحرير في الفترة الثانية من تاريخ هذه اللجنة .

والناظر إلى صفحات هذا الملف في فترته الجديدة سيجد مواد مختلفة ومعارف متنوعة ، فهناك البحوث العلمية ، والشعر ، والقصة ، إلى جانب (قضية ورأي) حول فكرة محددة ، ثم عناصر أخرى كقراءة في كتاب ، واستراحة العدد التي تضم معلومات أدبية قصيرة وطريفة متنوعة ، وبين بيادر وقرائها ، ودراسات نقدية ، وهذا الباب نطمع أن نتوسع فيه فننشر كل ما يصلنا من القراء حول ملف بيادر ، وكذلك نورد به بعض الدراسات التحليلة والنقدية المختلفة ، أو أي دراسة نقدية فكرية يكون لها صلة بنادي أبها الأدبي ، أو بملف بيادر ، كما تم استحداث بعض الأبواب الجديدة التي لم يسبق وجودها من قبل ، مثل : - باب (استطلاعات) والهدف من هذا الباسب أن يناقش

فيه موضوع معين عن بلدة معينة أو قضية أو فكرة لها علاقة بتراث المملكة العربية السعودية على وجه العموم ، أو بالمنطقة الجنوبية على وجه الخصوص . كما تم إيجاد باب آخر سمي بـ (ما قبل الوداع) ، وهو قصير في محتواه لكنه يسعى إلى مناقشة فكرة أو قضية أدبية معينة .

ويأمل القائمون على هذا الملف الارتقاء بمستوى المادة العلمية ، ولهذا فنحن نهيب بأرباب القلم المشاركة بكل ما هو صالح ونافع للدين والبلاد والثقافة العامة في جميع المجالات ، كما نأمل أن يركزوا في دراساتهم ومقالاتهم وقصائدهم وقصصهم على كل ماله علاقة ببيئة بلادنا ومجتمعنا .

وأخيراً نقول (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) .




البحوث

من أعلام الرحلات المسلمين في الجزيرة العربية
ناصر خسرو القبادياني

أ.د . أحمد خالد البدلي

المقدمة

حظي أعلام الفرس بنصيب جيد من العناية نلحظها في ثنايا كتبنا التاريخية والجغرافية والمعجمية والأدبية العربية .

إلا أن الباحث الجاد يشعر أن دور أولئك الأعلام الفرس كما هو في الواقع وحقيقة الأمر يظل غامضاً تكتنفه كثير من الظلال ، والسبب في ذلك الغموض هو أن آثارهم ونشاطاتهم العلمية كتبت بلغتهم الفارسية ، حتى أولئك الذين ألفوا منهم باللغة العربية تركوا كتباً باللغة الفارسية ربما فاقت ما كتبوه بالعربية لاجرم سموا بذوي اللسانين .

واللغة الفارسية لم تلق في جامعاتنا الاهتمام والعناية اللازمين ، رغم ما بين اللغتين العربية والفارسية من الوشائج ، والأثر والتأثير الذي لا يوجد نظيره بين بعض اللغات المنحدرة من أرومة واحدة .

ولقد ناديت دائما بأن من واجب المهتمين بالدراسات التي تتناول الحضارة الإسلامية المشاركة في إبراز نشاط الأعراق المتعددة التي ساهمت في تكوين تلك الحضارة فيبرز باحث دور الفرس ، وآخر دور الهنود ، وثالث دور الأتراك إلى آخر القائمة التي تضم الأعراق التي شاركت في تكوين الحضارة الإسلامية من جهة ، وعملت على نشرها من جهة ثانية . وإلا ظل جزء لا يستهان به من تراثنا مخبأ تحت ألسنة هذه الأعراق ، ولا مجال للاطلاع عليه إلا لمن يقيض له دراسة وتحصيل تلك اللغات وقليل ما هم .

وها أنا اليوم أقدم على ترجمة رحلة الجواب الفارسي ناصر خسرو القبادياني المسماة بالسفر نامه وقد ترجمتها من الفارسية إلى العربية ليطلع القارىء العربي على هذه الشخصية الفارسية المتعددة النشاطات .

وناصر خسرو شخصية فذة حقاً شغلت الناس ، وملأت أجواء القرن الخامس الهجري شعراً وفلسفة وأثارت جدلاً عقلياً عميقاً في منتديات ذلك القرن ، وأنا أجهد في تقديمها كما هي لاكما صورها المادحون وتناولها القادحون .

ولقد استخلصت ترجمة ناصر خسرو من مؤلفاته ؛ لأن خير ما يبرز أوجه نشاط الفنان هي منشآته ، لأن كتب التراجم تتراوح بين القدح الفادح والمدح المسرف .

ومما يدعو إلى الاحتياط عند الرجوع إلى كتب التراجم العربية والفارسية هو أنها - رغم ما تحويه من معلومات قيمة أحياناً - لا تعطي الباحث في كل حين شيئا ذا غناء يمكن الاعتماد والركون إليه ، لا سيما إذا كان المترجم له شخصية من وزن ناصر خسرو القباذياني الذي رفعه محبوه إلى درجة القديسين وانحدر به مبغضوه إلى درك الشياطين .

ولكي لا أكون متحاملاً فيما ذهبت إليه من قصور كتب التراجم العربية والفارسية ، دعنا نستعرض معا هذه الطائفة من الأقوال التي ذكرتها كتب التراجم عند حديثها عن قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (في الكتاب الذي ألفه عنه المرحوم الدكتور عبد الكريم عثمان) على سبيل المثال لا الحصر .

جاء في الفصل السادس من كتاب قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني تحت عنوان «آثاره ومؤلفاته» ما يلي :

« وقد أجمع من ترجم للقاضي على كثرة تأليفه سواء في ذلك الخصوم والمؤيدون فقد وصفه الذهبي بأنه « صاحب التصانيف المشهورة » . وقال عنه ابن قاضي شهبة : وله «المصنفات الكثيرة في طريقهم ، أي المعتزلة وفي أصول الفقه ، وذكر ابن شاكر الكتبي أنه « صاحب التصانيف المشهورة في الاعتزال وتفسير القرآن » . وأشار الكتبي إلى أن له « التصانيف السائرة والذكر الشائع بين الأصوليين » ، ووصفه الحاكم أبو السعد بقوله: « وليس تحضرني عبارة تحيط بقدره في العلم والفضل ، فإنه هو الذي فتق علم الكلام ونشر بروده ووضع في الكتب الجليلة التي بلغت الشرق والغرب صحتها من دقيق الكلام وجليله مالا يتفق لأحد مثله ، وطال عمره مواظباً على التدريس والإملاء ، وطبق الأرض بكتبه وأصحابه وبعد صحبته وعظم قدره ، وإليه انتهت الرئاسة في المعتزلة حتى صار شيخها وعالمها غير مدافع وصار الاعتماد على كتبه ورسائله ، ونسخت كتب من تقدم من المشايخ[1] » .

فإذا أراد الباحث الاعتماد على هذه الأقوال وتكوين فكرة عن عصر القاضي الهمذاني ومجتمعه ، وكل ما هو ضروري في صياغة الترجمة لم يجد فرقا بين تلك الأقوال إلا في الإيجاز والإطناب والقصور والشمول .

هذا عن كتب التراجم العربية ، أما كتب التراجم الفارسية فهي التيه بعينه ، فكتاب ككتاب « لباب الألباب » في تراجم شعراء الفرس ، منذ أن بدأ الشعر الفارسي الإسلامي إلى القرن السابع الهجري لمؤلفه محمد العرفي لا يغني الباحث في الوصول إلى شيء ذي بال عن حياة الشعراء الفرس الذين ترجم لهم ، رغم كونهم من رواد الشعر الفارسي الأوائل. يقول المرحوم العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني[٢]، ما ترجمته: « ومع أن لباب الألباب في ترجمة أحوال الشعراء فإنه لا يعطي غالباً معلومات مفيدة وخاصة سنة وفاة الشاعر التي تعتبر من أهم المواضيع في تراجم الرجال ، فإنه يهملها في أكثر الأوقات جهلاً أو غفلة . وهمه الوحيد هو استعمال الاستعارات السمجة والتشبيهات الباردة والسجعات المتكلفة الثقيلة والجناسات المتصنعة المستكرهة التي لا يخرج القارىء منها بطائل ، كما أن المنتخبات الشعرية التي يرويها للتدليل على شاعرية الشاعر هي من متوسط شعره ، أورديئه بحيث لا يمكن للباحث من خلال تلك النماذج أن يستخرج شيئا يركن إليه في الحكم على منهج الشاعر أو أسلوبه ، ومع ذلك فإن لباب الألباب يعد ، من الوجهة التاريخية والأدبية ، ذا أهمية عظيمة جداً »[٣] .

ومن سوء حظ الباحثين في الأدب الفارسي أن جمهرة كتب التراجم التي ألفت بعد « اللباب » مثل كتاب « هفت إقليم » لأمين أحمد الرازي ، و« رياض الشعراء » لعلي قلي خان ، و« الخزانة العامرة » ، لغلام علي خام آزاد بلكرمي و « منجاته » لحسن بن لطف الله الطهراني و« مجمع الفصحاء » للمرحوم رضا قلي خان هدايت ، تلك الكتب اعتمدت على « اللباب » فوقعت في كثير من أخطائه بدلا من تلافيها ، وقس على ذلك بقية كتب التراجم الفارسية التي تناولت الكتاب والعلماء والوزراء والأعيان ورجال الدولة.

لكل ما سبق فضلت الاعتماد على آثار ناصر خسرو القبادياني في جلاء حياته ، واستكناه نشاطه العلمي ، ولا أعني بذلك أني سأهمل كتب التراجم جملة ، بل سيقل الاعتماد عليها وستكون الاستعانة بها في حدود الضرورة .

وأود أن أشير إلى أني اعتمدت في هذه الدراسة على المؤلفين والمحققين الفرس المحدثين الذي جمعوا بين المنهجية العلمية والأدب القومي ؛ لأن كل أمة أعرف - على الغالب - بحالة علمائها . فقد قيل : « قتل أرضا عالمها » .

حياة المترجم له :

الرحالة الفارسي ناصر بن خسرو بن حارث القبادياني أحد أشهر الرحالة المسلمين في القرن الخامس الهجري (أوائل الحادي عشر الميلادي) ولقبه حميد الدين[٤] .

ولد في شهر ذي القعدة سنة ٣٩٤هـ في قباديان من نواحي بلخ ، وتوفي سنة ٤٨١هـ في وادي « يمكان » التابع لمدينة « بدخشان » الواقعة اليوم في أقصى شمال بلاد الأفغان عند حدود كشمير .

ينحدر ناصر من أسرة خراسانية نبيلة ، وقد اشتهر بعض أفرادها بالجاه والثراء والنفوذ ، نعرف من أفرادها أبا الفتح عبد الجليل ، وهو أخ لناصر خسرو - كان التقى به عندما عاد سنة ٤٤٣هـ ، من رحلته العتيدة التي استمرت سبعة أعوام - وكان أبو الفتح هذا أحد أعيان بلخ ومن وجهاء الدولة السلجوقية . تولى منصباً إداريا مرموقاً خلال وزارة عميد[٥] الملك الكندري وزير ألب أرسلان السلجوقي .

وقد نشأ ناصر خسرو نشأة تليق بأبناء الأسر الفارسية العريقة ، فحفظ القرآن في صباه وتعلم شيئاً من الخطب والأشعار العربية ، وكثيراً من نظائرها الفارسية .

فلا يكاد يصل إلى مرحلة الشباب حتى نراه في بلاط الغزنويين فهو يشير إشارة واضحة في رحلته إلى أنه رأى ببلاط يمين الدولة محمود الغزنوي وابنه مسعود[٦]. وكما نعلم فقد توفى السلطان محمود الغزنوي سنة ٤٢١هـ عندما كان ناصر خسرو في حدود السابعة والعشرين من عمره .

وظل في الأعمال الديوانية في عهد الغزنويين مسؤولاً عن الشؤون المالية وربما كان هذا سبب إقامته الدائمة في مدينة بلخ العاصمة الشتوية للغزنويين[٧] .

وصل ناصر إلى أعلى المراكز الإدارية في آخر العهد الغزنوي وأوائل العهد السلجوقي ، يستفاد ذلك من هذه الأبيات من ديوانه :

همان ناصرم كله خالي بنود	زمن مجلس مير وصدر وزير
بنامم نحواندي كس ازبس شرف	أديبم لقب بود وفاضل ودبير

وبقي ناصر خسرو زمناً في الأعمال الديوانية ، خادماً أميناً للسلاجقة ، وكان يتمتع بعقل جبار ، وقريحة متوقدة ، وفؤاد ذكي ، وكان فوق كل ذلك يتمتع بهذا القلق الفكري

الخالد الذي يتميز به هذا النفر من البشر الذين تهيئهم الأقدار لتحمل جسيمات الأمور . وكان هذا مفتاح شخصية ناصر خسرو القبادياني الذي نترجم له .

فقد كان خلال عمله بالديوان السلجوقي يمارس هذا النوع من السلوك الذي يغلب على عمال الدواوين من لهو ولعب ، وجري وراء المال والجاه والنفوذ ، ويرى هذه السعايات أو الوشايات والمكائد التي تزخر بها بلاطات السلاجقة ، وموقف الخلافة العزيزة في بغداد من هذه التركمانية الوافدة من سهول آسيا ، هذا الموقف الذي تراوح بين مباركة بغداد لها إذا ما وقفت التركمانية سدا منيعاً أمام أطماع الخوارزميين والفاطميين والبويهيين المحدقة ببغداد ، وبين تأليب عليها وتضريب بين آرائها - وكل طامع في الرياسة والمجد وخلع الخليفة وصلاته وتقريراته .

نقطة تحول في حياة ناصر خسرو :

يلاحظ الباحث في تاريخ إيران الفكري في القرون الهجرية الثلاثة الرابع والخامس والسادس ظاهرة تكاد تكون أحد أبرز خصائص الاتجاه الفكري فيه . وأعني بهذه الظاهرة هذا الحس القومي الفارسي المجروح . فما كاد الفرس يكونون لأنفسهم دولا مستقلة فارسية خالصة بدأت من الطاهريين والسامانيين والصفاريين . وبدأ الشعور القومي الفارسي يزدهر في شعر الرووكي وملحمة الفردوسي حتى بوغت هذا الفكر - في تصور الفرس على الأقل - بنكسة طاعنة أدمت كبرياء القوم .

فتحول السلطان من آل سامان إلى الغزنويين لم تنظر إليه النخبة المفكرة من الفرس مجرد تحول سلطان من بيت إلى بيت ، بل عدوه خروجا للسلطان من الفرس إلى التركمانية . لذلك يجد الباحث في الفكر الفارسي في هذه القرون الثلاثة مبرراً لتعالي أبي القاسم الفردوسي على يمين الدولة محمود الغزنوي ، وتردده في توشيح الشاهنامه سجل مفاخر الفرس إلى سليل العبيد كما كان الفردوسي ينعت محموداً .

فتعليل حرمان الفردوسي من صلات محمود لأنه ذكر أهل البيت النبوي ببعض أبيات في المقدمة أمر يحتاج إلى قدر عظيم من السذاجة كي يقبله الإنسان ، فقد كان في بلاط محمود وابنه مسعود عدد هائل من الشيعة يتولون أعلى المناصب الإدارية .

لقد رأى مفكرو الفرس ملكاً عظيماً بناه قومهم ينهار ، ورأوا الغلمان والرقيق والمغامرين والخدم يتسلطون على الخلفاء في بغداد والملوك في إيران ، ويرتكبون عظائم

الآثام باسمهم . نعم لقد سخط مفكرو الفرس على دولة الخدم كما كان يدعوهم الشاعر العربي المتنبي بذلك ، فلا نعجب من هذه الكثرة الكثيرة من مفكري الفرس الذين تناولوا هذا الانهيار القومي كل على طريقته فنرى الفردوسي والخيام وناصر خسرو وحسن الصباح كلهم يبكي على هذا المجد الضائع ، وهذا الفرح الذي لم يتم .

فلقد ظل ناصر خسرو يتهافت على فتات ذلك الملك التركماني ، ولكنه كان في أعماق أعماقه يرى نفسه أولى بخالصه ومحضه . لاجرم أن يستشعر قلبه بغض هذه الحياة التي تجري فيها الأمور على غير ما يقتضيه العدل والإنصاف والحق .

والفكر الإنساني هيولي رهيب أشبه ما يكون بالنهر العارم المضطرم تحت أعماق الأرض القصية إن لم يجد مسارا طبيعيا ، شق له مسارات متعرجات وهذا ما حدث لرحالتنا الفيلسوف .

فبعد أن تعب من الوصول إلى ما يسكن قلقه ويجيب على تساؤلاته الكثيرة التي يقول إنه توجه بها إلى عقلاء العرب والفرس والهنود والأتراك وأهل السند والروم واليهود وتوسل إلى أصحاب الملل والنحل من فلاسفة وما نويين وصابئين ودهريين حيث يقول :

ازيـــارس وتــــازي وازهـــنـــد وازتـــرك	وزسندي ورومي زعبري همه بكسر

وزفلسفي ومانوي وصابي ودهري درخاستم اين حاجت برسيدم بي مر يرسنده همي رفتم ازين شهر بدان شهر : جونيده همي كشتم ازين بحر بدان بر . لم ييأس رحالتنا ولم يقل كما قال معاصره الخيام(٨) .

بــذرت لـــديـــهـــم بـــذور الحـــكـــم	ووالـيـت أســــــــقـــي ثراهـا بـدم
فـــمــــاذا جنيت من الغــــرس ذاك	مــــــجيء مـــــاء... رواحي نسم

بل انتهى إلى اقتناع عقلي راسخ فحواه أنه لا بد أن يجد هذا المنقذ له من حيرته بين الناس ، وسوف لا تخطئه عينه إذا حان وقت اللقاء ، فسيكون متميزا عن الخلق ، كما يمتاز الباز عن جنس الطير ، وكما يفضل البعير بقية البهائم ، وكما تتسامى النخلة عن بقية الشجر ، وكما لا تخطيء العين الياقوتة بين جنس الجواهر ،، وكما لا يلتبس الفرقان مع بقية الكتب ، وكما تتقدس الكعبة بين المباني ، متميزا . سيكون باختصار متميزا عن كل قرن .

وجاءت اللحظة الحاسمة جاءه المنقذ من الضلال في هيئة رؤيا رآها في « جوزجانان» يحدثنا عنها في مقدمة رحلته قائلاً :

(سافرت إلى « جوزجانان » ومكثت بها شهراً ، لا أفارق معاقرة الخمر ولا بأس من الاعتراف بذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قولوا الحق ولو على أنفسكم» بينما أنا نائم ذات ليلة رأيت فيما يرى النائم شخصاً يؤنبني قائلاً « إلام ستظل تشرب هذه الخمر التي تزيل عقول الرجال ؟ الإقلاع عنها خير لك . فأجبته : « إن الحكماء لم يجدوا وسيلة تقلل من هموم الحياة خيراً من الخمر » فقال الطيف : « إن الغفلة والسكر لا راحة فيهما ، ولم يزعم الحكماء أن الغافل عن أمر نفسه يمكن أن يتولى قيادة الآخرين وإرشادهم . بل عليك أن تبحث عن وسيلة تزداد بها عقلاً وحكمة ، قلت أنى لي ذلك ؟ فأجاب الطيف : « من يبحث يجد » وأشار إلى القبلة ولم يزد على ذلك شيئاً وانصرف . (والقبلة في تأويلات الإسماعيلية تعني الإمام الحق الواجب الاتباع) .

فلما انتبهت من نومي كانت تلك الرؤيا تملأ كياني ، وقد أثرت بي تأثيراً شديداً ، فقلت لنفسي : « لقد صحوت ياناصر من نوم البارحة ، فجدير بك أن تنتبه من نوم الغفلة التي استغرقت حياتك كلها » وعرفت أني إذا لم أبدل كل أعمالي وأفعالي ، وأولد من جديد فلا راحة لي . واتخذت قراري .

فاغتسلت وتوضأت واتجهت إلى المسجد الجامع ، وصليت وسألت المولى تبارك وتعالى أن يمدني بالعون لأداء ما يجب علي نحوه . وأن يعينني على اجتناب ما نهى عنه» .

هذه الرحلة :

تعد رحلة ناصر خسرو القباداياني مصدراً من أهم مصادر دراسة التاريخ الإسلامي والجغرافيا التاريخية ، فقد شملت جزءاً مهماً من النواحي الشرقية للخلافة العباسية ، فهي تكاد تغطي الجزء الفارسي الذي كان تحت قبضة السلاجقة ، وبقايا الغزنونين في شبه القارة الهندية ، وكل المنطقة التي تعرف اليوم ببلاد الأفغان ، كما شملت الرحلة آسيا الصغرى والشرق الأدنى وأطراف العراق الشمالية الشرقية ، كما تناولت افريقيا من شمالها في تونس حتى جنوبها الشرقي (مصر) ، كما تحدثت الرحلة عن أهم أجزاء الجزيرة العربية في الحجاز ونجد وتناولت جانبا من اليمن .

والرحلة بهذا سجل خطير للعالم الإسلامي في فترة من أحرج فترات تاريخه الوسيط وهي فترة التحول الخطير في التاريخ الإسلامي بل العالمي . فقد كانت نذر عاصفة الحروب الصليبية تتجمع في الأفق الشمالي عند حوض البحر المتوسط لتكتسح سواحل الشام بعد ثلاثة عقود من تسجيل هذه الرحلة . وكان يتصدى لهذا الخطر الأسود حكام الولايات الساحلية والداخلية بحماسهم الديني العظيم ولكن بإمكانياتهم المحدودة جداً .

بينما الخلافة العباسية في بغداد تعاني من الشيخوخة والتراخي والتفكك . فهي منهكة القوى لكثرة ما صدت من مؤامرات خارجية وتواطؤ داخلي ، ولولا حماس العنصر التركي المسلم الذي هب من الشرق الآسيوي لنجدة بغداد لتغير وجه التاريخ الإسلامي ، ولما انتظرت بغداد هجمة هولاكو الشرسة في القرن السابع الهجري لتصبح الخلافة أثراً بعد عين . كما أن الفاطميين في مصر وبعض أجزاء الشام والجزيرة العربية كانوا يمرون بفترة عصيبة بالغة الحساسية والتعقيد ، بسبب الخلافات الضارية بين المستنصر بالله الفاطمي الشيخ الضعيف ووزرائه المستبدين وأبنائه الذين لم يبلغوا الحلم بعد .

وهكذا نرى أن رحلة ناصرخسرو لم تكن مجرد تسجيل تاريخي للمدن التي زارها هذا الجّواب الفارسي - ومع أن هذا الوصف التسجيلي كان الصفة المشتركة بين أغلب كتب الرحالة والمؤرخين في ذلك العصر - بل إن هذه الرحلة تهتم اهتماماً بليغاً بتفصيل التفصيل .

فرحّالتنا يقف عند كل صغيرة وكبيرة ويتحدث عنها حديثاً يتناول كل الجوانب .

فإذا حلّ بمدينة من المدن خلال رحلته التي استغرقت سبع سنين تحدث حديثاً مفصلاً عن أسوارها والمادة التي بنيت منها وطول السور وعرضه وثخانته وعدد أبوابه ، ونقاط القوة والضعف فيه ووضع المراقب والأعتدة الحربية ، ونوع الاستعدادات العسكرية حول السور ، كما يتحدث عن قصور المدينة وقنواتها ونظام الري والصرف فيها ، والمسالك المفضية إليها والخارجة منها ، والمسافة بينها وبين أقرب مدينة أو قرية أو جبل أو نهر أو غابة أو صحراء أو واد . فهو يذكر الجبال والوديان والمزارات المقدسة وغير المقدسة ، وعقائد أهلها ، والنحل ذات الغلبة فيها ، وأنواع الأسواق والتجارات الرائجة فيها ، ونوع البضاعة المصنوعة في المدينة والمجلوبة إليها وأصناف التجار والصناعات السائدة فيها . والموازين والمكاييل والمقاييس والنظام النقدي وطريقة جمع الخراج بها . بل كان هذا الجوّاب الفارسي يهتم بعدد طبقات المنازل في المدن وسعة الحجرات ، وكم نفر يستطيعون

أن يقيموا في الحجرة الواحدة ، كما يهتم بالتقييم الاجتماعي للسكان والعروق التي يتكون منها جيش المدينة . ويدقق في السلالات البشرية في بعض المدن واللغات السائدة بها .

ولست في حاجة إلى الاعتراف بأن كل مترجم لأي أثر علمي تحكمه عاطفتان علمية ووطنية . وأنا عندما فكرت في ترجمة هذه الرحلة الفذة من الفارسية إلى العربية (رغم وجود ترجمة عربية لها بقلم أستاذنا الدكتور يحيى الخشاب التي طبعت عام ١٩٤٥م) كنت مدفوعاً بهذين العاملين العلمي والوطني .

فحسب علمي وتتبعي فهذه هي أول ترجمة عربية مباشرة من الفارسية إلى العربية ، أما ترجمة الخشاب فقد كانت من أصل فرنسي .

ودعاني إلى ترجمة هذه الرحلة ما امتازت به من بين الرحلات التي تلتها كرحلتي ابن جبير ٥٣٩ - ٦١٤هـ وابن بطوطة ٧٠٤ - ٧٧٩ هـ وغيرهما ، هو أنها تحدثت عن بعض أجزاء بلاد العرب بشكل جيد ، ولولا إشارة هذا الرحالة لظلت المعلومات عن تلك المناطق - رغم قلتها - مشوشة مضطربة .

فحديث ناصر خسرو القبادياني عن مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف والأفلاج واليمامة والأحساء ذو قيمة تاريخية وحضارية كبيرة . تطلعنا على جانب بالغ الأهمية عن هذه الأجزاء من جزيرة العرب .

فقد رأى الرحالة من المظاهر الصناعية والعمرانية والنشاط التجاري في قلب نجد مالم يكن يخطر ببال أكثر المتفائلين والمتحمسين ، ولقد أزاح برحلته هذه الستار عن مهاد استقرار كثيرة في جزيرة العرب من الطائف إلي الأحساء مروراً بقلب نجد ، بينما ظل المؤرخون المسلمون يوحون إلى القارىء من خلال تناولهم لهذا الجزء من الجزيرة بأنه جزء مغرق في التخلف ولا عهد له بأي درجة من الاستقرار المفضي إلى أي نوع من أنواع الحضارة .

ولقد ساعدت رحلة ناصر خسرو هذه على نفي هذا الادعاء المغرق في المبالغة فهو يقول : إنه رأى خارج أسوار اليمامة كل أنواع الصناع وألوان الصناعات ، كما تحدث عن قنوات اليمامة العظيمة ونظام الري الفذ فيها . كما تحدث عن قوافل التجارة التي كانت

تقطع صحاري الجزيرة من البحرين إلى الأفلاج ثم اليمامة فالأحساء ففارس عبر (بحر العجم) صعوداً إلى الهند والصين .

فلم تكن الصحراء العربية وسكانها في رأي كثير من الرحالة المسلمين تعيش وسط ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الداكنة فحسب بل كانت مصدر هذه الخرافات والأساطير ، إلى أن كتبت هذه الرحلة لتثبت لنا العكس تماماً .

الفاطميون في رحلة ناصر خسرو :

حظيت الدولة الفاطمية بأكبر نصيب من عناية هذا الرحّالة الفارسي ، فقد دخل مصر في يوم الأحد السابع عشر من شهر صفر عام ٤٣٩هـ.

وكانت الدعوة الفاطمية تمر بأحرج لحظاتها ، كما كانت تعيش في صميم الفترة التي عرفت في التاريخ الفاطمي « بالمحنة المستنصرية » نسبة إلى أبي تميم معد بن الظاهر المستنصر بالله ثامن الخلفاء الفاطميين ولد سنة ٤٢٠هـ ، وتوفي سنة ٤٨٧هـ.

وقد ولي المستنصر بالله الخلافة يوم الأحد ١٥ شعبان سنة ٤٢٧هـ وهو ابن سبع سنين وهذا الخليفة الطفل كان ألعوبة في يد الوزراء أمثال أبي سعد سهل بن هارون التستري وفخر الملك صدقة بن يوسف الفلاحي وأبي محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري ، وأبي القاسم علي بن حمد الجرجرائي .

ورحلة ناصر خسرو تلقي كثيراً من الضوء على الزوايا السياسية والاجتماعية والمذهبية في مصر الفاطمية ، خاصة إذا علمنا أن الكتب التي تتناول هذه القضايا الهامة في العصر الفاطمي قلما يتاح لها الذيوع والانتشار لأن الدعوة الفاطمية تقوم أساساً على مذهب الستر .

ويكفي أن يقرأ الباحث المقدمات المسهبة التي كتبها المرحوم محمد كامل حسين في سلسلة كتب التراث الفاطمي التي قدر له أن ينشرها ليعرف قلة المعلومات التي عرفت فعلاً عن حياة الدعوة والدعاة الفاطميين .

حقاً إن ثمة بعضاً من أبواب الدراسات الإسلامية المتعلقة بالتصرف والتشيع وما إلى ذلك من دراسة الملل والنحل والمذاهب الإسلامية المختلفة ، لا فائدة من معالجتها إلا إذا اعتمد الباحث اعتماداً كلياً على المصادر الفارسية .

ورحلة ناصر خسرو من هذه الوجهة مرجع أساس لمن يهتمون بهذا النوع من الدراسات الفاطمية .

وناصر خسرو عندما وصل إلى مصر لم يكن مجرد سائح عادي يرصد ما يري ويروي ما يسمع بل كان فاطمي العقيدة والهوى . وقد تدرج في مراتب الدعوة حتى انتهى به الأمر إلى أن أصبح حجة خراسان « وهي من أعلى مراتب الدعوة الفاطمية لا تعلوها سوى درجة الإمامة » .

وعقيدته الفاطمية هي التي حملته على تفصيل كل ما يتعلق بمصر الفاطمية ، وإشادته بمصر في ظل الفاطميين ، هذه الإشادة التي تصل أحيانا إلى درجة المبالغة المسترذلة .

وفي خلافة المستنصر بالله الفاطمي ظهر ثلاثة من كبار الدعاة الفاطميين الفرس هم على التوالي المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي داعي الدعاة في إقليم فارس عام ٤٤٨هـ ، وناصر خسرو القبادياني داعي الدعاة في إقليم خراسان عام ٤٤٣هـ ، وحسن الصباح صاحب المدرسة النزارية . وهذا الأخير كان يعمل لحسابه الخاص مستغلاً تدهور الأوضاع الفاطمية في مصر خلال الخلاف بين المستعلي ونزار ابني المستنصر بالله ، وكل هؤلاء الثلاثة قدم إلى مصر وتلقى الدعوة الفاطمية وأصبح من كبار المتحمسين لها والداعين إليها والمدافعين عنها(٩) .

ولقد التقى ناصر خسرو بالمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي سنة ٤٣٩هـ وتلقى ناصر مبادىء الدعوة الفاطمية من المؤيد الشيرازي في أثناء إقامته في مصر التي امتدت لست سنوات وربما قبل ذلك .

ولست أدري لم أجدني أميل إلى تفسير رؤيا ناصر خسرو التي تحدث عنها في أول رحلته على أنها لم تكن سوى التقائه بالمؤيد في إيران ، وربما بأحد دعاة المؤيد الكثيرين الذين كان يبثهم في أنحاء إيران ، حتى إنه استطاع أن يغري حاكم فارس البويهي بالانضواء تحت لوائه الفاطمي(١٠).

وكان المؤيد في الدين الشيرازي هذا من كبار علماء الدعوة الفاطمية وفلاسفتها حتى إن أبا العلاء المعري كان ينعته في المراسلات المتبادلة بينهما بالسيد الرئيس الأجل ويقول عنه :« ولو ناظر أرسطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه » ، ولقد كان التقاء ناصر خسرو بالمؤيد الشيرازي نقطة تحول حاسمة في حياته ، فقد وجد في تعاليم

المؤيد الفاطمية ما ظل يبحث عنه زمنا طويلا ، وقد أشار إلى هذا التحول في قصائد كثيرة مبثوثة في ديوانه الشعري الفارسي الكبير(١١).

بداية محنة :

لقد عاد ناصر خسرو القبادياني من رحلته الشاقة المضنية تلك وعندما وصل إلى البصرة في العشرين من شهر شعبان سنة ٤٤٣هـ كان قد وصل به الجهد والإرهاق والفقر والمسكنة أقصى حد ممكن . يقول :

« كنت وأخي قد بلغنا من العرى والمسكنة والفاقة حداً جعلنا نبدو كالمجانين ، وقد طالت لحانا وتلبدت الأقذار والأوحال على أجسادنا ، ولا غرابة في ذلك ، فإننا لم نغتسل منذ ثلاثة أشهر .

وعندما بعت الخرج الوحيد الذي كنت أحمل فيه كتبي بدريهمات قليلة وهممت بدفع تلك الدريهمات إلى الحمامي في البصرة طردنا الحمامي وقد ظن بنا الظنون فغادرنا باب الحمام يجللنا الخزي . وأسرعنا نبحث عن ملجأ يقينا حدة البرد القارس ، فرآنا بعض الصبيان فظنونا من المخابيل ، وانطلقوا خلفنا يقذفوننا بالحصى ، ويصيحون علينا صيحات منكرة ، وانتهى بنا المطاف أخي وأنا إلى زاوية بعيدة منعزلة خارج مدينة البصرة وأخذنا نفكر فيما انتهى إليه أمرنا ، ونعجب لأحوال هذه الدنيا » .

نعم لقد كانت عودة ناصر خسرو القبادياني إلى إيران بعد رحلته الشاقة تلك بداية محنة ظلت تلاحقه إلى آخر حياته .

فقد أصبح داعي الدعاة الفاطميين في منطقة خراسان وكتب التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي طافحة بتفاصيل الخلافات بين الفاطميين ودعاتهم من ناحية وبين العباسيين وولاتهم من ناحية ثانية .

وحوصلة هذه الدراسة لا تتسع لإيراد تفاصيل تلك الخلافات المذهبية وربما تحدثت عن الدور الخطير الذي لعبه هذا الداعية الفاطمي ناصر خسرو القبادياني لو قيض الله لي أن أبسط حياته العلمية في كتاب خاص يتناول جوانب شخصيته المتعددة الاتجاهات .

مؤلفات ناصر خسرو :

خلف ناصر خسرو القبادياني مجموعة من المصنفات شملت كثيراً من الموضوعات العلمية التي كان يوليها كثيراً من الاهتمام . ولكن أغلب تلك المؤلفات غالتها يد الزمن

أو ظلت مجهولة لم يكشف النقاب عنها بعد . ومن حسن حظ الباحثين أن وصلت إليهم طائفة من كتبه الهامة ، من ذلك هذه الرحلة المسماة (السفرنامه) وكتاب (روشنائي نامه) وهو من الشعر المثنوى ، وقد حققه المستشرق الألماني هرمان أته : Hermann Ethe عام ١٨٧٩م ، من ثلاث مخطوطات مختلفة وهي عبارة عن النسخة المحفوظة في مدينة كوتا Gotha بألمانيا ، والنسخة المحفوظة بمكتبة ليدن Leyden والنسخة المحفوظة في مكتبة « ديوان الهند » India Office بلندن وبعد أن درس هذا المستشرق هذه المخطوطات الثلاث وقارن بينها وشرح الاختلافات الموجودة بينها نشر نتيجة بحثه في مجلة « جمعية المستشرقين الألمانية » Zeitschrift Der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft وقد نشر ذلك البحث القيم منجما في تلك المجلة الألمانية.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية تأسست في برلين جمعية الصداقة الإيرانية الألمانية وعملت على إحياء التراث الفارسي ونشره فاعتمدت على بحث المستشرق الألماني « أته » حول كتاب « روشنائي نامه » وطبعته في مطبعتها المعروفة بمطبعة « كاوياني ».

وكتاب « روشنائي نامه » من نوع المثنوي الفارسي . والكتاب عبارة عن منظومة قصيرة تشتمل على ٥٩٢ بيتاً من بحر الهزج ، وموضوعها الحكمة والوعظ والإرشاد وقد نظمها في أثناء إقامته في « وادي يمكان » .

سعاد تنامه :

ومن مؤلفات ناصر خسرو التي وصلت إلينا منظومته المعروفة سعاد تنامه أي كتاب السعادة . وقد تفضل المستشرق الفرنسي أدمان فانيان Edman Fagnan بتحقيق هذه المنظومة عام ١٨٧٩م . ونشرها في المجلة الآسيوية[١٢] ثم قام المستشرق الألماني «هرمان أته » بنشر ذلك التحقيق عينه في مجلة « جمعية المستشرقين الألمانية » .

وقد قامت مطبعة « كاوياني » ببرلين بنشر السفر نامه والروشنائي نامه وسعاد تنامه في كتاب واحد هو الذي اعتمدت عليه في ترجمتي هذه .

وسعاد تنامه منظومة في ثلاثين بابا وهي كسابقتها الروشنائي نامه تدور حول الموعظة والنصيحة والتهذيب الأخلاقي ، والمنظومتان أقرب ما تكونان إلى النصائح التي يوجهها داعي الدعاة في المذهب الفاطمي إلى المستجيبين للدعوة فهما بهذه المثابة من

صميم نشاط ناصر خسرو المذهبي ، ومجموعة أبيات سعاد تنامه مائتان وسبعة وثمانون بيتاً من بحر الهزج .

زاد المسافرين

من مؤلفات ناصر خسرو المهمة كتاب « زاد المسافرين » ويعد من أمهات كتب علم الكلام في المذهب الإسماعيلي ، وقد ألف سنة ٤٥٣هـ ، وقد عرض المؤلف في هذا الكتاب سبعاً وعشرين رسالة في علم الكلام والفلسفة ، فتحدث عن الحواس والأجسام والنفس والهيولى والزمان والمكان وحدوث العالم وإثبات الصانع وخلق العالم وكيفية اتصال النفس بالجسم والميعاد والرد على مذهب التناسخ وإثبات الثواب والعقاب وقضية اللذة ، وغير ذلك من القضايا الرئيسة في علم الكلام والفسلفة . وكان خلال هذه الرسائل يفند آراء علماء الكلام والفلاسفة وخاصة محمد بن زكريا الرازي الذي شدد عليه ناصر خسرو النكير وحمل على آرائه الفلسفية حملة شعواء .

وقد قام العالم الهندي محمد بذل الرحمن بتحقيق هذا الكتاب تحت إشراف المستشرق البريطاني « أدوارد براون[١٣] E. G. Browne ونشرته مطبعة كاوياني في برلين في شهر جمادي الآخرة سنة ١٣٤٢هـ.

الديوان :

من أبرز مؤلفات ناصر خسرو القبادياني التي كانت شائعة في حياته هما رحلته السفرنامه ، وديوان شعره الذي كان كثير من شعراء الفرس في القرن الخامس الهجري وبعده يعرفونه بل يحفظون طائفة كبيرة منه .

ويقول دولتشاه السمر قندي في كتابه « تذكرة الشعراء » : إن ديوان شعر ناصر خسرو كان يشتمل على ثلاثين ألف بيت من الشعر ، ومهما يكن في هذا الادعاء من مبالغة، فإنها مبالغة ذات دلالة على شاعرية ناصر خسرو ، وقد كان يباهي بذلك كثيراً في أشعاره ويؤيده في ذلك كثير من معاصريه من الشعراء ومن جاء بعده .

ولعل أقدم نسخة من ديوانه هي تلك النسخة الناقصة المحفوظة في مكتبة « ديوان الهند » India Office بلندن تحت رقم ١٣٢ ضمن مجلد ضخم يشتمل على أشعار ستة من شعراء الفرس ، وقد كتبت تلك النسخة سنة ٧١٤هـ أي بعد ٢٣٣ عاماً من وفاة ناصر خسرو القبادياني (ت ٤٨١هـ) .

ولقد اعتمد المستشرق الألماني « هرمان أته » على نسخة « ديوان الهند » ، في تحقيقه لديوان ناصر خسرو ، كما اعتمد على نسخة خطية أخرى محفوظة في مكتبة بودليان بأكسفورد في بريطانيا .

ولقد طبع ديوان ناصر خسرو عدة طبعات ، الطبعة الأولى في مدينة « تبريز » سنة ١٢٨هـ ، والثانية في طهران عام ١٣١٤هـ ، وهي طبعة حجرية والثالثة هي طبعة « أته ».

وأصح طبعة ظهرت حتى الآن من الديوان بشهادة الباحثين المحدثين من حيث التوثيق العلمي هي النسخة المطبوعة في مطبعة « كيلان » في إيران والتي حققها وصححها العلامة الإيراني المعاصر السيد آقاي حاجي سيد نصر الله تقوى والتي نشرت عام ١٩٦٠ الموافق شهر بور ١٣٣٩ من السنة الإيرانية .

وقد كتب الأستاذ الفاضل العلامة الإيراني أقاي تقي زاده ، مقدمة ضافية على الديوان الذي نشره المحقق آقاي حاجي سيد نصر الله تقوى .

منهج الترجمة :

اعتمدت في اختياري لهذه الترجمة من السفرنامه على النسخة المطبوعة في مطبعة « كاوياني » ببرلين . وهي كما أعلم أحدث وأدق طبعة ظهرت عن السفرنامه حتى الآن .

وقد طبعت السفرنامه أول ما طبعت في باريس سنة ١٢٩٨ هـ ، الموافق ١٨٨١م ، على يد المستشرق الفرنسي « شارل شيفر » Charies Schefer وهو أحد أكبر المهتمين بالدراسات الشرقية ، وكان مدير معهد الدراسات الشرقية في باريس ، ولكنها طبعة فيها بعض الأخطاء والتحريف والتصحيف ، وقد اعتمد شيفر على النسختين الخطيتين المحفوظتين في المكتبة الوطنية بباريس .

ثم طبعة السفرنامه في طهران سنة ١٣١٤هـ ، ومع أن طبعة إيران كانت حجرية فإنها لم تكن سيئة ، ولكنها اعتمدت على الطبعة الفرنسية اعتماداً كلياً ونقلتها نقلاً فوقعت في الأخطاء نفسها التي فيها بدلاً من تلافي تلك الأخطاء ، وتمتاز هذه الطبعة التي اعتمدت عليها في الترجمة على سابقتيها « أعني طبعة باريس وطهران » بأنها أخذت خير ما فيهما ، وانفرد محققها العلامة محمود غني زاده بالضبط والدقة ، فقد دعم هذه الطبعة بالتخريجات والموازنات لكل ما أوردته طبعتا باريس وطهران ، وراجع جل ما تيسر له من كتب تاريخ الأدب الفارسي القديمة والحديثة التي تناولت مؤلفات ناصر خسرو

بالدراسة والبحث ، واستدرك على الطبعتين السابقتين كثيراً مما لم يتيسر لهما الحديث عنه ، من ذلك مثلاً أن هذه الطبعة التي بين يدي والتي كانت ملاك ترجمتي تشير إلى أن السفرنامه في أصلها ربما كانت أكبر حجما مما هي عليه الآن ، وربما اختصرها بعض الوراقين ، ويسوق الدليل على ذلك أنه جاء في مقدمة الشاهنامة للفردوسي المعروفة لدى الباحثين في الأدب الفارسي - بمقدمة بايسنقر - نقلا عن السفرنامه ما يلي :

« يقول الحكيم ناصر خسرو في السفرنامه : « إنه في سنة أربع مائة وثمان وثلاثين من الهجرة وصلت إلى « طوس » ورأيت رباطاً كبيراً شيد حديثا ، فسألت الناس عمن بناه فقالوا: « إن هذا الرباط بني من المال الذي أرسله السلطان محمود الغزنوي صلة للفردوسي» ، فلما استخبرت الناس عن الفردوسي قالوا إنه مات قبل وصول هذا المال . ورفض ورثته استلام المال ، فأمر السلطان محمود الغزنوي ببناء هذا الرباط من ذلك المال وجعله وقفاً باسم الفردوسي » .

ويذكر المحقق العلامة محمود غني زاده أن هذا الكلام لا يوجد في النسخة التي طبعها » .

ومن هنا يتضح لنا أن هذه الطبعة أكثر دقة وضبطا وتوثيقاً ولذلك اعتمدت عليها وترجمتها إلى العربية .

الهوامش

(١) المرحوم الدكتور عبد الكريم عثمان : « قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني » ص٥٥ ، ٥٦ الدار العربية للطباعة .

(٢) المرحوم محمد بن عبد الوهاب القزويني (مقدمة محمد قزويني - مجلد أول) ص١٥ كتاب « لباب الألباب » كتانجانه أبن سينار كتانجانه حاج علي علمي .

(٣) بحث تحقيق دربارءة ناصر خسرو . الدكتور مهدي محقق ، مجلة كلية الآداب ، جامعة طهران ، عدد ٩٤ لعام ١٩٧٥م.

(٤) يقول الشاعر دهقان على الطرنجي في « لباب الألباب » ج١ ، ص ٣٩٢ في هجو ناصر خسرو : نصر كافي جو ناصر خسرو : كرد خودرا لقب حميد الدين .

(٥) هو عميد الملك أبو نصر منصور بن محمد الكندري (ابن الأثير في مواضع متفرقة ، ابن خلكان ، ج٢ ص٧ ، دمية القصر ، ص ١٤٠ ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص٥).

(٦) لمزيد من التفصيل تراجع رحلته وبالذات حضوره مأدبة الخليفة المستنصر بالله أبي تميم معد بن علي .

(٧) تاريخ أدبيات درايران ، للدكتور ذبيح الله صف ، ج٢ ، ص ٤٤٦ ، كتاب فروش ابن سينا .

(٨) رباعيات الخيام : ترجمة إبراهيم العريض ، ص ٧٥ ، مطابع دار العلم للملايين ، بيروت عام ١٩٦٦ (أول مارس) .

(٩) نصر الله فلسفي ، جند مقالة تاريخي وأدبي ، ص ٤١٧.

(١٠) محمد كامل حسين (دكتور) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص ٤٣.

(١١) ديوان ، ص ١٧٤ - ٤٥٥ .

(١٢) Journal Asiatique, VII Serie, (13) No. 1

(١٣) كتاب أدوارد براون المسمى : A Literary History of Persia

التعليم وحركة التحول التاريخي في منطقة عسير

(خلال القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي)

د . غيثان بن علي بن جريس

تعددت طرق ومناهج تدوين التاريخ والحضارات عند الشعوب السابقة على ظهور الإسلام ، وكذلك في العصور الإسلامية المبكرة ، مثلما تعددت مصادر جمع المادة العلمية التاريخية . ومن تلك المصادر ـ ولعل من أهمها ـ التدوين عن طريق الرواية الشفاهية ، وربما سجلت الرواية لتصبح مذكرة مكتوبة وغير منشورة[١] وهذا ما أردنا فعله في الصفحات التالية لنؤرخ لحقبة زمنية عاشتها حاضرة أبها ، من جهة كونها عاصمة منطقة عسير ، خلال العقود المتوسطة من القرن الرابع عشر الهجري (القرن العشرين الميلادي). وذلك عندما التقينا بأحد رجال مدينة أبها ، وهو الأستاذ / يحيى بن حسن بن مستور[٢]، وطلبنا منه تزويدنا ببعض المعارف السياسية والحضارية لتاريخ مدينة أبها خاصة ومنطقة عسير عامة ، وقد تجاوب معنا شفاهة ، ثم دون الكثير من المعلومات وفي مجالات مختلفة ، وبالتالي نشرنا الكثير من مذكراته في مؤلفين مختلفين هما : (تاريخ التعليم في منطقة عسير [(١٣٥٤ - ١٣٨٦هـ / ١٩٣٤ - ١٩٦٦م[٣]. الجزء الأول] وكتاب (أبها حاضرة عسير ... دراسة وثائقية)[٤] ، وبقي لدينا معلومات قيمة لم تنشر في الدراستين السابقتي الذكر ، ولأهميتها التاريخية والحضارية لمنطقة عسير عامة ولمدينة أبها بصفة خاصة ، ثم لتغطيتها لجوانب لم نعد نعرف عنها شيئا منذ الثلاثينيات إلى التسعينيات في القرن الهجري الماضي (العشرين الميلادي)[٥] رأينا إيرادها في الصفحات التالية ، مع العلم أننا سوف ننشرها كما وصلتنا من الأستاذ/ ابن مستور ، مع إجراء بعض التعديلات المحدودة كي يستقيم معناها ، إلى جانب تزويدها بسلسلة من الحواشي والتعليقات حتى تعم الفائدة على جميع القراء الكرام.

يورد ابن مستور قوله : - " بعد سقوط الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الثانية ، وانسحاب متصرفها من عسير في بداية عام ١٣٣٦هـ ، وتسليمها الحكم للأمراء المحليين، وما نتج عن تحول الحكم من دولة مكنتها قواتها من السيطرة ليس على عسير فحسب ، بل على كافة أطراف الجزيرة العربية ، وخلافها كما هو معلوم ومدون في

التـواريخ إلى سلطة أصغـر ذات إمكانـات محـدودة ، لاسيـمـا وأنهـا في عـهـد الدولة العثمانية كانت تعيش في الظل[٦] ، وفجأة وجدت نفسها ليس فقط خارج الظل ، بل في الصفوف الأمـاميـة في ظل هذه الظروف ، وفي خضم هذه الأجواء المشحـونة بالتـوترات اجتاحت المنطقة (أبها ، وما جاورها من منطقة عسيـر) ، عاصفة هوجاء من القلاقل والفتن احتواها وعمل علي تهدئتها انضمامها للحكم السعودي ، كما هو معلوم فاستقرت الأمـور ، وهدأت عاصفة الاضطرابات ، وصارت الأمور ـ بحمد الله ، ثم بحسن توجيه وإدارة من كـان يوفـدهم جلالة الملك عبد العزيز آل سعود (رحمـه الله) من الأمـراء ، والقضاة ، والدعاة ، والمصلحين ـ تسير من حسن إلى أحسن[٧] .

فبعد استتباب الأمن ، وقطع دابر الجريمة بإقامة الحدود على قُطّاع الطرق ، وتحكيم شرع الله فيهم من قبل السلطات السعودية اتجهت جهود المخلصين من الطائفة السعودية إلى الإصلاح ، وبناء ما تهدم من كيان المجتمع العسيري في الفترة الانتقالية[٨] ، فاتخذت الخطوات التالية لسير انطلاق قافلة التعليم وبدأت كالتالي :

١- قام كل من القضاة محمد بن إسماعيل ،والشيخ فيصل آل مبارك ، والشيخ سليمان بن جمهور، والشيخ عبد العزيز الثميري الذين شغلوا القضاء في أواخر الأربعينيات[٩] ، وخلال الخمسينيات من هذاالقرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) قاموا بالإضافة إلى خطب الجمعة التي تقام أسبوعيا بحلقة درس خاصة لطلاب العلم ، منهم من أقامها في داره كابن جمهور كما حدثني بذلك عبد الله بن محمد بن زياد (رحمه الله) الذي قال لي إنه كان يعطيهم درسا يوميا في داره بعد العصر ويغريهم بالحضور ، ويربطهم بالدرس فيعطيهم شهريا مكافأة نقدية ، ومن المؤكد أنها من المالية بأمر من الحكومة كتشجيع ، ومنهم من أقامها بالمسجد ، وأحيانا في شكل مواعظ أسبوعية في الأسواق ، وأماكن تجمع الناس واستمر الأمر على هذا المنوال آخذا في التوسع في حلقات الدرس اليومية والمتعددة طيلة أيام الأسبوع وكانت حلقة الدرس المفتوحة بحضور الأمير تحت قصر الإمارة آنذاك في أعلى ساحة السوق التي استمرت خلال الستينيات والسبعينيات وربما جانب من الثمانينيات[١٠].

٢- خلال الأربعينيات وأوائل الخمسينيات قامت الجهات المعنية هنا متمثلة في الإمارة والمالية وربما القضاة بإيجاد مدرسة " كتاب " مكونة من ناصر بن فرج من رجال ألمع[١١] ، وعبد الرحمن المطوع من حجاز عسير[١٢] ، والبواب عبد الله السقا لتعليم

الأولاد القراءة ، والكتابة على الطريقة البدائية القديمة بدءا بالحروف ، ثم تركيب الكلمات مرورا بالحركات : الرفع والنصب والكسر والسكون ، ثم الانتقال لتلاوة القرآن ، وهذا ما كان سائدا في الجزيرة العربية ، وخلافها وربما بعض الأرقام الحسابية البسيطة . وكانت تلك المدرسة عبارة عن فصلين أول وفيه المبتدئون يعلمهم العم عبد الرحمن وأعمارهم تتراوح بين الخامسة والثامنة ، ثم يُنقلون إلى فصل العم ناصر لتلاوة القرآن وأعمارهم ما بين الثامنة إلى الخامسة عشرة وشغلهم الشاغل تدارس القرآن : فمنهم من قرأ الثلث ، ومنهم نصف المصحف ، ومنهم من قرأ ثلاثة أرباعه ، فإذا ختم القرآن تخرج وعمل والده وليمة للمدرسين والجيران والأصدقاء وأرحام والده وكسا المدرسين كأعطية ومكافأة ، ثم ينضم بعد ذلك إلى والده لمساعدته في الزراعة ، أو رعي الماشية أو في التجارة ، أو في حرفة يحترفها والده . ولهذه الحفلة (طقوس) ، وأهازيج خاصة يرددها رفاقه الطلبة ، ويحضرون إلى داره لابسين أحسن ملابسهم في طابور يرددون أهازيجهم وهي عبارة عن حمد الله ، وشكر المدرس ، والبسمة تنفرج بها شفاههم ، والبشر يعلو وجوههم ، وسرور والد الذي ختم القرآن لا حد له . ويعدّ الطالب المتخرج بلغ نهايته إلا أن معلوماته العامة وحصيلته من شتى فنون المعرفة التي تشتمل عليها المناهج اليوم محدودة[١٣] . وخلال عام ١٣٥٤هـ ، وذلك عندما عين طلعت بك وفاء مديرا لشرطة أبها بعد انتهاء مهمته في ضمن اللجنة الملكية الموفدة من قبل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود (رحمه الله) لتصحيح الأوضاع في منطقة عسير ، ونجران ، وجيزان ، وبعد انتهاء مهمته مع اللجنة المشتركة لترسيم الحدود بين اليمن والسعودية عام ١٣٥٣هـ قام هذا الرجل تطوعا بعمل جليل قد لا يعرفه إلا القليل ، لأنه خارج نطاق عمله كمدير للشرطة[١٤] ، وبعيدا عن مجال اختصاصه الأمر الذي يعطي الدليل المادي على ما يتمتع به من أحاسيس تفيض نبلا ، وعواطف تجيش بالخير تجاه مليكه ، ووطنه وبني جنسه فعندما شاهد بأم عينيه أنه يوجد بالمدينة " كتاب " مدرسة واحدة فقط يعلم فيها العم ناصر بن فرج والعم عبد الرحمن المطوع ، وهو اللقب الذي كان يطلق عليهما ، وتعرف مهنتهما به ، وشاهد هذه البراعم لا تتلقى من التعليم إلا تلاوة القرآن ، وهذه واحدة من أكبر النعم بالإضافة إلى شيء بسيط من القراءة والكتابة على الطريقة البغدادية التي كانت سائدة في أبها ، وخلافها في الخمسينيات من القرن الهجري الماضي ، ومعلوم أن علوم القرآن وعلوم السنة وخلافها من شتى فنون المعرفة لا تثبت في الذهن وترسخ إلا بالتوسع كما وكيفا في التعليم الذي يعرف بالابتدائي ، ثم الإعدادي ، فالثانوي ، وبعد ذلك الجامعي تدرج طلعت وفاء في

إقناع الأستاذين / ناصر بن فرج وعبد الرحمن المطوع (جزاهما الله أحسن الجزاء ورحمهما رحمة واسعة) بالتوسع في التدريس ، وتنويع مواده بزيادة المدرسين ، واستطاع من جهة ثانية إقناع المتعلمين من موظفي المالية ، وكاتبي العدل وهم قلة بالتطوع لإعطاء مواد دراسية في المدرسة ، والالتزام بالحضور إلى المدرسة والمشاركة في إعطاء الدروس اليومية في الوقت المحدد بالإضافة إلى أعمالهم الأساسية . فأقنع الموظف بالمالية يونس بن حمد ، وابنه مدني بن يونس وهما من المدينة المنورة وكان الأول محاسباً بالمالية ، وكذلك الموظف محمد صالح سلامة ، ولعله من مكة المكرمة ، وكذلك الموظف بالمالية سليمان رجب بالإضافة إلى كاتب عدل أبها عبد الله باذيب وهو من مكة ، وحولوا بجهودهم الذاتية ، وبمحض رغبتهم ، ونزولا ، واستجابة لاقتراح مدير الشرطة المدرسة "البدائية " (الكتّاب) إلى مدرسة نظامية ، وجهزوا جدول حصص يشتمل على أكثر المواد التي تدرس الآن في التعليم الابتدائي وقاموا ما بين عامي ١٣٥٤هـ وعام ١٣٥٥هـ بإجراء هذا التحول . وهذه النقلة في طريقة التدريس تركت انطباعا حسنا عند الطلبة ، وأولياء أمورهم ، ولدى أعيان المدينة ، وكبار المسئولين : من أمير ، وقاض ، وصادف اقتران ذلك بالتحاقي بالمدرسة كطالب في عام ١٣٥٥هـ ولكوني في تلك السنة صغير السن ، وكان يدرسنا في الأولى العم عبد الرحمن المطوع ، ومن المؤكد أن هؤلاء المتطوعين كانوا يدرسون الكبار الذين كان يطلق عليهم ذلك الوقت الختام ، ولعل هذه التسمية جاءت من كونهم أكملوا قراءة المصحف كاملاً فكانت تطلق عليهم هذه الصفة إلا أني سمعت هذا الكلام ، وأكده لي من عايشه وعاصره من الخُتّام وهما الأخ سليمان بن أحمد ميمش ، ومحمد بن إبراهيم مناظر ، الأول كان أحد كبار موظفي الشئون الصحية الإداريين ، وقد تقاعد منذ بضع سنوات ، والثاني أحد موظفي الجوازات السابقين حيث كان يعمل مأمور قسم الإقامة وقد تقاعد هو الآخر منذ مدة ، فقد كانا من ضمن الطلبة الذين تلقوا التدريس على أيدي هؤلاء المتطوعين ، سالفي الذكر الذين اشتركوا في التدريس أيام الكتاب ، مساهمة منهم في الرفع من قدرات الطلبة ، وتطوعا بدون أي مقابل مادي سوى الرغبة في فعل الخير استجابة لطلب مدير الشرطة طلعت وفا ، وكان معهم أيضا مدير اللاسلكي أحمد عبيد . اتخذ هذه الخطوة التمهيدية طلعت وفا الذي كان يشغل مديرا للشرطة وكان دوره بارزا في المدينة ، ثم واصل جهوده المشكورة لتحويل المدرسة (الكتّاب) إلى مدرسة نظامية تابعة لمديرية المعارف العامة ،وكانت ذلك الوقت تتخذ من مكة المكرمة مقراً لها في عهد الملك عبد العزيز آل سعود (رحمه الله) شأنها

في ذلك شأن المصالح الحكومية الرئيسية فقد كان الأمن العام بمديريته العامة ، ووزارة المالية وكان على رأس هذه المصالح الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود عندما كان نائبا عاما لجلالة الملك في الحجاز . علماً بأن " الكتاب " قبل تحويله إلى مدرسة نظامية كان تأسيسه ورواتب المعلمين والبواب ، ومصروفاتهم ومتابعة سير أعمالهم كان من قبل إمارة عسير ، ومالية أبها ، وقاضيها التابعين للحكومة السعودية إلا أن عدم ارتباطها بمديرية المعارف العامة جعل إمكاناتها محدودة وعطاءها ضئيلاً لعدم وجود الدعم المادي ، والمعنوي ، فاتصل طلعت وفاء بمدير المعارف العام بمكة السيد محمد طاهر الدباغ ، واستطاع إقناعه بالعمل على افتتاح مدرسة ابتدائية نظامية تحل محل الكتاب ، فرشح عبد الرحيم الأهدل وعبد المالك طرابلسي ، ومحمد إسماعيل الإبي بعد الحصول على موافقة النائب العام في مكة ذلك الوقت جلالة الأمير فيصل حسبما علمت من المدير الأستاذ عبد المالك ، وبعد الموافقة أحضرهم طلعت وفا معه إلى أبها في سيارة كانت وزارة المالية تجهزها لرجال الحكومة في تنقلاتهم(١٥).

بمجرد قدومهم إلى أبها في شهر شوال سنة ١٣٥٥ هـ كانت المدرسة السابقة تشغل غرفتين في مبنى بلدية أبها المكون من طابقين ، الأرضي دكاكين تشرف على السوق " سوق الثلاثاء " وكان في وسط المدينة جنوبي ساحة السوق ، ويحاذيها بل كان ملاصقا لها مبنى مسجد برازان من الجنوب ، وبعد معرفة مستويات الطلبة شكلوا منهم ثلاثة فصول الأول للمبتدى ، والثاني لمن يحسن كتابة الحروف الأبجدية ، والثالث للخُتّام الذين سبقت الإشارة إليهم واستأجرت المالية منزل والدي حسن بن مستور (رحمه الله) وكانت من أنسب الدور ذلك الوقت ، وأكثرها ملاءمة للمدرسة فهي تشتمل على صالة داخلية بطول ١٥ × ٤ أمتار يخرج فيها من ناحيتها الشرقية والغربية ست غرف كبيرة اتخذت فصولا وإدارة ، وبها فناء خلفي وملاحق غطت حاجة المدرسة ذلك الوقت . وفي عام ١٣٥٧هـ بعد أن تشكل الفصل الرابع " السنة الرابعة " نقلت المدرسة إلى دار عبد الله هبيش الواقع بحي نعمان باعتباره طابقين ولعله أكثر غرفاً لمواجهة نمو الطلبة ، وتزايد أعدادهم . وفي عام ١٣٥٨هـ بعد إيجاد الفصل الخامس نقلت المدرسة إلى دار الشيخ عبد الوهاب أبي ملحة الواقعة شمالي ساحة البحار المجاورة بل الملاصقة لداره التي كان يتخذها الشيخ سكنا له ، والمكونة من ثلاثة طوابق ، وهي القائمة حاليا والمقامة بالمونة المحلية ، والتي آلت ملكيتها مؤخرا للدولة واتخذت هي ومحتوياتها " كمتحف للآثار " والحقيقة أنها جديرة بذلك فهي من خيرة مباني أبها ، بل عسير عامة وتمثل النمط المحلي

في أسمى صورة ، وكان الفصل " السنة " الأول ، والثاني في الطابق الأرضي قريبا من الأفنية والفصول الثالث ، والرابع ، والخامس في الطابق الثاني ، وكذلك الإدارة ، وكانت الدرجة (السلم) تنتهي في شمالي صالة مستطيلة تقع الفصول على جهتيها الشرقية والغربية ، ومقر الإدارة في نهاية الصالة جنوبا بحيث يتمكن المراقب ، أو المدير من الإشراف على كل ما يجرى في المدرسة(١٦) .

والمدرس يتمكن من الانتقال للفصول ، والاطلاع على الجدول ، وأخذ ما يلزم من الطباشير والمقرارات ، الأمر الذي جعل حركة التدريس ، وانتقال المدرسين تسير بيسر وسهولة ، وكان المدير عبد المالك يؤدي دروس بعض الحصص لاسيما دروس الدين ، والتاريخ ، وكان يحلق بنا في آفاق المعرفة مستغلا تعطش الطلبة إلى شرحه ويجذبهم إلى معلوماته الغزيرة ، وله طريقته الأبوية الحانية في استمالة الطالب للإنصات إليه ، وكان في ربيع عمره وأوج شبابه حباه الله بعقلية راجحة ، وقدرات علمية فائقة خاصة في التاريخ ، وعلوم الكتاب ، والسنة ، وكان لإخلاصه الكبير ، وتفانيه في واجبه ، وتقديسه المهمة الكبيرة الملقاة على عاتقه ليس فقط تعليم الناشئة ، بل تقويم سلوكهم ، وتهذيب طباعهم ، وتتويج التعليم بالتربية الحسنة لأن هذا ما كان يتحلى به هو شخصيا ، فيؤثر بالعمل قبل العلم ، ويقرن القول بالفعل ، فسلوكه مستقيم ، وسيرته حسنة أدرك بفراسته ومن خلال حنكته وتجاربه التي يقابلها ما يسمي اليوم بالتربية ، وعلم النفس ، فالمؤمن ينظر بنظرة الله كما في الحديث ، سبر أغوار الطلاب ، وما يحيط بهم من أهل ، ومجتمع فعرف الغني ، ومتوسط الحال ، والفقير من أولياء أمور الطلبة ، وما يعترض الطلبة من صعاب فعمل على تذليلها واستشف من خلال تعامله مع المجتمع والطلبة أن البون شاسع في طبقات الطلاب ، وأن من بينهم صعب المراس ، ولين العريكة ، والمنضبط، وغير المنضبط ، والمجتهد، والمقصر، وأن من الطلبة من يشغله أهله لمساعدتهم في أعمالهم اليومية من زراعة، ورعي الغنم، وأعمال حرفية في السوق، فعمل جاهدا على احتواء هذه العوامل غير المتجانسة ، والتي لا تتفق ، ورسالة التعليم، وما يجب أن يكون عليه من انضباط، وتفرغ ففتح صدره لأولياء أمور الطلاب، واستمع منهم، ومن خلال تعامله مع الطلبة يوميا عرف عن طباعهم الشيء الكثير، فأخذ يعالج الأمور، ويذلل الصعاب، ويمهد الطريق من خلال تدريسه ومن خلال مواعظه، وإرشاداته، وتوجيهاته اليومية حتى استقامت الأمور، وأخذت دروب التدريس تتجه إلى الطريق السوي شيئا فشيئا ، واستعمل هو والمدرسون النفس الطويل والتذرع بالمرونة والصبر حتى

انتظمت الأمور ، وأخذت طرق التدريس تسير في مسارها الطبيعي وبذلك تحولت طرق تدريس الكتاب بجهوده ، وقسوته ، ومحدوديته عطاء وانضباطا إلى آفاق أرحب ومجالات أوسع وانضباط أكثر حسب الطرق الحديثة(١٧).

هذا ، ومادام سياق الكلام عن شيء من سلوكيات ، وقدرات الشيخ عبد المالك وهو المربي الكبير ، والأستاذ القدير ، فإن من الإنصاف ذكر شيء عن الأستاذ محمد إسماعيل الإبي فالرجل نشأ ، وترعرع في اليمن " قضاء إب " ولظروف سياسية أفرزتها الأوضاع الدولية بعد حرب إسرائيل الأولى أخرج أهله من اليمن فتطوع أحد المحسنين باليمن ولعله " ابن الوزير " ، وله مكانته في بلاط ملك اليمن السابق يحيى حميد الدين ،وأخذ الأستاذ المذكور محمد إسماعيل الإبي ، ومعه أخته وقام بتسليمهما إلى إمام الحرم أبي السمح في مكة المكرمة ، حيث أشرف على تربيته وتعليمه ،وما فطر عليه محمد إسماعيل من ذكاء مفرط ، ولأن عمل الإمام المذكور " أبي السمح " في الحرم المكي ، ومن المؤكد أن داره وهي التي نشأ فيها الأستاذ محمد إسماعيل الإبي يغلب عليها الطابع الديني ، وفي ظل هذه الأجواء كانت نشأة محمد المذكور ، فقطع شوطاً كبيراً في العلم ، والمعرفة وأصبح لا يبارى في علوم الأدب ، والشعر ، والتاريخ ،ولايجارى في العلوم الشرعية ، وذلك في زمانه ، وأمثاله المتعلمون قلة ، مما ساعده على أن يؤلف مقطوعات شعرية ، ومواد نثرية للطلاب في شكل حوار ، ويوزع الأدوار على الطلاب بما يبدعه من شعر ، ونثر وقصص ، ومسرحيات ، وأنشطة طلابية متنوعة فهو ينبوع للعلم والمعرفة يرتوي بنبعه الصافي كل من خالطه أو عاشره في المدرسة ، أو داره أو الشارع ، وصار قلب المدرسة النابض ، ونجمها الساطع بما يثيره من إبداعات في حواراته ، ومناقشاته ، وصار المدرسون ، وكبار السن من الطلبة يلازمونه للاستفادة من معلوماته الثرة ، ومعارفه الغزيرة التي ما فتىء يبذلها لهم ليلاً ، ونهاراً ، ولا يبخل بإتحافهم بكل طريف ، ومفيد وكان من ضمن من لازمه ملازمة الشيء ظله : كل من الأستاذ محمد أحمد أنور(١٨) ، والأستاذ موسى بن ناصر وهما ممن كان يعمل في الكتّاب ثم تم إلحاقهما بمدرسة أبها الأميرية بترشيح من المدير عبد المالك طرابلسي ، ولازمه أيضا من ضمن أول دفعة تخرجت عام ١٣٦٠هـ كل من الطالبين النجيبين : السيد محمد إبراهيم النعمي ، ومفرح بن محمد الخلفي(١٩) وقد رشحا مدرسين وبعثا لمديرية المعارف العامة حيث أجريت لهما مقابلة واختبار من قبل مدير المعارف العامة ذلك الوقت السيد محمد طاهر الدباغ ، ووافق على تعيينهما مدرسين وكان تخرج أول دفعة من السنة الخامسة قبل افتتاح السنة السادسة

ثمانية أشخاص هم : (١) سعيد عبد الوهاب أبو ملحة (٢) سليمان أحمد ميمش (٣) السيد أحمد إبراهيم النعمي (٤) محمد عبده عسيري وقد عين هو الآخر مدرسا (٥) مفرح بن محمد الخلفي (٦) يحيى بن حسن بن مستور (٧) سليمان أحمد فايع (٨) إبراهيم بكر رجب . وأعطوا جميعهم شهادات التخرج موقعة من مدير المدرسة والمدرسين ، وذلك بخط مدير مدرسة رجال ألمع الأستاذ محمد عمر رفيع وحلاها بجمل مختارة[٢٠] ، واستعمل فيها الخط الفارسي ، والرقعة ، والنسخ ، وكانت المدرسة تسمى بالأميرية ثم تحول مسماها مؤخرا إلى المدرسة السعودية وهي أول مدرسة نظامية افتتحت في أبها استمرت من أواخر عام (١٣٥٥هـ) إلى عام (١٣٧٥هـ) . تخرج الطلاب من السنة الخامسة والمقررات مكثفة ، والإقبال من الطلبة كبير ، والمنافسة على أشدها والمدة المقررة للدراسة من حيث الساعات نهارا والسنة الدراسية السنوية أطول ، ووسائل اللهو ، واللعب شبه معدومة حتى إن الطالب ليحاسب على عبثه ، ولعبه الذي ينجم عنه مضيعة لوقته أو إضرار الآخرين ، فمجالات العبث واللهو واللعب ضيقة ، ومحصورة في أضيق الحدود ، فالغالب على الحياة طابع الجد يدخل الطالب المدرسة فيحس بهيمنة النظام ، وحياة الجد يصغي إلى المدرس باهتمام زائد ، يحترم المدرس كاحترامه أباه ويجد ثمرة ذلك لدى المدرس عطفا وحنوا .

يسود المدرسة جو من الاحترام المتبادل ، ويتجمع الطلبة في فناء المدرسة صباحا والغالب منهم ممسك كتابه للاستذكار وبعض منهم يمارس شيئا من الألعاب الخفيفة دون إحداث ضجة أو ضوضاء ، فالمدير عبد المالك واقف بالمرصاد لكل من تسول له نفسه تجاوز حد الاعتدال باللعب ، لا سيما إذا وصل هذا التجاوز إلى إلحاق الضرر بالآخرين ، أو اقتراف ما يخل بالمروءة ، ويثلم الشرف ، وكانت الدراسة تبدأ بعد شروق الشمس مباشرة ، وعند الانصراف يشكل الطلبة طابورا وعليهم عرفاء ، ومراقبون يصطحبونهم إلى المسجد الجامع ، لأنه قريب من المدرسة ، فيتوضأ الطلبة ، ومن ثم يتقاطرون إلى المسجد للصلاة ، والمراقبون ينظمون مسيراتهم ، ويلاحظون عدم تشويشهم على المصلين ، وبعد الصلاة ينصرف كل منهم إلى داره ، وفي فترة من الفترات كانت الدراسة فترتين : صباحية إلى الظهر ، ومسائية إلى العصر ، وأحياناً عند استمرار الدراسة إلى ما بعد صلاة الظهر يؤدي الجميع صلاة الظهر في بهو المدرسة جماعة يؤمهم الأستاذ / عبدالمالك ويوجد أمام المدرسة فناء فسيح لأنشطة الطلاب في الحفلات التي تقام في مناسبات الأعياد ، وينتشر الطلاب في ساحة البحار الموجودة الآن موقفا للإمارة ، لأن مبنى المدرسة

يشرف عليها من الناحية الشمالية ، وهو المبنى القائم الآن بجوار قصر الشيخ عبد الوهاب أبو ملحة[٢١].

أما أثاث المدرسة ، وأدواتها فهي عبارة عن طاولات مستطيلة مشتركة لخمسة طلاب بها خمسة أدراج يقابلها كرسي مشترك لخمسة طلاب ، وهي من صنع محلي ، كما يوجد في كل فصل (سبورة) مع طباشير ، وتوزع الإدارة على الطلاب الكتب المقررة ، وأذكر من المؤلفين عبد الله المطلق للمقررات الدينية ، والمطالعة أحمد السباعي ، كما أذكر من المقررات درساً تحت مسمى التهذيب يختار فيه آيات قرآنية كريمة ، وأحاديث شريفة ، وشعر ، وقصص تصور القيم الرفيعة ، وتحث على المثل العليا ، ودرساً للصحة يشتمل على مبادىء النظافة ، وطرق الوقاية وكانت المقرارات مكثفة ، وكانت إدارة المدرسة تخصص رحلات برية حيث يخرج الطلبة ، والمدرسون في أحد البساتين المشهورة حول مدينة أبها كالبصرة ، وعلى ضفاف وادي أبها حيث الغدران والمياه .

والطلاب تحت رعاية المدرسين فنحن ندرس ذلك الوقت الفقه في كتاب عمدة الفقه ، والمعروف أنه يدرس حاليا في الثانوية العامة ، ونقطع شوطاً كبيراً في دراسة النحو (القواعد) ، ودرس الإنشاء بما يعرف اليوم بمادة التعبير ، وكانت تدرس الجغرافيا تحت مسمى " تقويم البلدان " ،وكفاءة المدرسين العلمية والتربوية عالية ، فما نقص من المقررات يختارون من أمهات الكتب قطعا مناسبة ، وينقلها الطالب في دفتره ، وندرس من الحساب الأعمال الأربعة " : جمع ، وطرح ، وضرب ، وقمسة " ، والكسور العشرية والاعتيادية ، وكانت الاختبارات شهرية ، ويعاد الترتيب على المقاعد بحسب الدرجات شهريا ، مما يخلق منافسة بين الطلاب ، كما أن المقررات جميعها حفظ " عن ظهر غيب " وتستهل الدراسة يوميا بالقرآن الكريم ، ولمدة حصة كاملة[٢٢] .

وقد استمرت المدرسة على هذا المنوال تخرج الطلاب منها من السنة الخامسة فقط ولمدة عشر سنوات ، ولم يحدث فيها الفصل السادس إلا في عام (١٣٦٥هـ) ، حيث لم يتخرج من أول سنة إلا شخص واحد هو السيد محمد إبراهيم النعمي ، وأول دفعة من السادسة تخرجت عام (١٣٦٦هـ) ، وكان عددهم اثني عشر طالبا كان منهم سعيد بن عبدالله بن مسفر الذي روى لي المعلومة ، والأول هو رئيس كتابة العدل بمنطقة أبها ، والثاني (سعيد بن مسفر) زميله في المدرسة وفي العمل ، وكان رئيس كتابة العدل هو الآخر خلفا (لمحمد النعمي) حتى طلب التقاعد منذ سنة ، ولقد كان لمجهودات هذين

الرجلين البارزة في تنمية كتابة العدل بأبها منذ كانت نواة ، وتحسين أداء الخدمة فيها بما يتماشى مع التعليمات كان لذلك ، الأثر الكبير في توسيع العمل فيها ، ورقيه كماً وكيفاً .

وهذان الرجلان أيضاً صاحبا التدرج في كتابة العدل وبناء العمل الإداري والهيكل التنظيمي ، وتوسيع قاعدته أفقياً ، ورفع درجة الأداء رأسياً حتى وصلت إلى درجة ومستوى يرضي كل منصف ، خاصة وأنها تشتمل على مقدرات الدولة والأمة ، وكان لما يتحليان به من إخلاص ونزاهة ، واستقامة ، وما يتمتعان به من قدرات إدارية ،وما اكتسباه من خبرات لتسيير الأمور بالطرق الشرعية حسبما رسمته حكومتنا السنية ، كان لذلك أكبر الأثر في سير الأمور في الدرب السوي[٢٣] .

وللحقيقة ، وللتاريخ فإن المتخرجين من هذه المدرسة " الأميرية سابقا ، السعودية حاليا " على مدار خمسة عشر سنة من عام ١٣٦٠هـ إلى عام ١٣٧٥هـ كان أغلبهم على هذا المنوال ويتصفون بما وصف به كاتبا العدل ، واستطاعوا اكتساب قدرات إدارية ، وخبرات بالشئون المالية وخلافها من خلال ممارستهم شتى الأعمال المختلفة ، الأمر الذي هيأهم للقيام بالأعمال الإدارية والمالية المتنوعة في جهاز الإمارة ، ومكاتب المحكمة ، والشرطة ، والجوازات ، والأحوال المدنية ، والمساعدة في إدارة دفة أعمال " مالية أبها " .

وهذه الإدارات وغيرها التي كانت قائمة خلال عقود الستينيات ، والسبعينيات ، والثمانينيات الهجرية ، فلقد كان من بينهم سيف عبده الألمعي عند ممارسته إدارة معتمدية المعارف بأبها كمساعد للمعتمد عيسى فهيم في أثناء تحويلها من مديرية مدرسة إلى معتمدية ، فاختار نخبة من المدرسين الأكفاء للاستعانة بهم في الأعمال الإدارية ، وشكل بهم أقساما ارتفع بهم الأداء ، وساعد على تحسن العطاء ، ومكن الإدارة الجديدة من أداء واجبها كاملا وحقق الفائدة المرجوة من التجديد ريثما تحدث الوظائف اللازمة ، لأن الأستاذ عيسى فهيم وإن كان يتمتع بقدرات علمية عالية فلقد كان للأستاذ سيف الألمعي في المساعدة الكبيرة في الشئون الإدارية والمالية دور بارز .

ومنهم الأستاذ محمد بن عبد الله الحميد رئيس النادي الأدبي حالياً الذي أدى أدواره بنجاح : مدرسا ، ثم وكيلا للمدرسة الفيصلية ، ثم مديرا لها ثم مديرا للتعليم بأبها . ومنهم أيضاً محمد حسين قدح الذي تدرج في وظائف هامة في وزارة المالية حتى وصل مدير عام أملاك الدولة بوزارة المالية ، ومنهم سعيد مبارك مروح الذي تدرج في وزارة

المالية حتى وصل درجة " خبير مالي " في الوزارة ، ومنهم إسماعيل محمد المعني الذي وصل درجة سفير في " اليمن " بعد أن تدرج في وزارة الخارجية السعودية ، ومنهم الشيخ سعيد بن عبد الوهاب أبو ملحة الذي تدرج في الوظائف المالية بمالية أبها حتى وصل "مدير الزكاة والدخل" ومنها أسندت إليه رئاسة ماليات الجنوب بعسير ، فأداها على أكمل وجه ، ومنهم يحيى حسن مستور الذي شغل على التوالي مديرية الجوازات والجنسية، فرئاسة بلدية مدينة أبها ، ثم مدير مشروع كهرباء أبها وذلك لمدة عشرين سنة ، ومنهم عشرات المدرسين ، ووكلاء إدارات المدارس ، ومفتشون مركزيون في إدارة المدرسة كما يطلق عليهم سابقا ، " وموجهو تربية " حاليا ومديرو المدارس - والموجهون وهم كثر . وقد ساهموا في إدارة دفة العمل الإداري في جهاز الإمارة " إمارة عسير " بكفاءة عالية ونزاهة : كعبد الله بن محمد بن زياد ، ويحيى بن علي الحفظي ، وهادي بن حسن ، وصالح الفرحان ، وخلافهم ، وما قلته عن الإمارة ينسحب على جهاز المحكمة الإداري فعبد القادر الحفظي ، والسيد محمد إبراهيم النعمي ، وإبراهيم الشعفي ، وغيرهم كان لهم دور بارز في إدارة دفة أعمال المحاكم خلال العقود الثلاثة المشار إليها وربما فترة من التسعينيات(٢٤) .

ولا يفوتني إضافة الشئون الصحية ، فإن أحدهم هو سليمان بن أحمد ميمش بما اكتسبه من خبرات إدارية ومالية ظل محور العمل ، ومرتكزه الإداري كعضد مساند لمديري الشئون الصحية المتعاقبين خلال حقبة العقود الأربعة المشار إليها ، ومنهم حسين بن ظافر الأشول الذي وصل درجة عالية في شركة أرامكو وتدرج في وزارة الزراعة حتى وصل درجة " مدير عام " وهو الآن عضو في نادي أبها الأدبي ، ومنهم العضو الثاني للنادي وهو أحمد إبراهيم مطاعن فقد اشتغل رئيسا لأحد أقسام الشرطة ، وعمل في وزارة الصحة ، وأسندت إليه رئاسة بلدية مدينة أبها فترة من الزمن . ولأن مالية أبها كانت مركزاً مالياً يمون جميع الإدارات الحكومية بالمال من رواتب ومصروفات ، ومقررات ، وإليها تنتهي قرارات التعيين وطي القيد ، والترقية ، ومصاريف جميع المصالح الحكومية فإنها محط أنظار وآمال الجميع ، لارتباط المصالح العامة ، والخاصة بها ، والمال - كما هو معلوم - عصب الحياة ، فقد عمل بها بالإضافة إلى من كانت توفدهم وزارة المالية ومقرها " مكة المكرمة " من الموظفين القياديين الحجازيين الأكفاء : كإبراهيم إسلام ، وعمر مهدي ، وياسين طه ، وعبد القادر خورشد ، وحسين سمكري عمل مع هؤلاء من خريجي المدرسة المذكورة ، وفي الفترة المشار إليها كل من عبدالله بن

عبدالرحمن المطوع ، وعبد الله بن علي بن خنفور ، ويحيى بن محمد السرحاني ، ويحيى بن حسن مستور ، واستطاعوا مسايرة رؤسائهم ، وزملائهم من مكة واكتساب الخبرات في إدارة الأمور المالية وحققوا الفائدة المرجوة منهم على أكمل وجه[٢٥].

أما ضباط الدفاع والأمن العام فبلغت أعدادهم العشرات : ما بين رواد ، وعقداء ، وعمداء ، وألوية ، بل لقد عمل أحدهم وهو اللواء محمد الغرابي في شرطة الرياض أكثر من عشرين سنة أكثرها مديراً لشرطة الرياض ، وقد تسلم أحدهم وتقلد أكبر رتبة عسكرية وهي " فريق " وأسند إليه مدير شرطة جدة ، وقيادة قوة المواسم وهو الفريق دليم بن علي عسيري . وهذا ما أسعفتني الذاكرة بإيرادهم ، ومن المؤكد أن الأعداد أكثر مما ذكرت ، وعسى أن يكون إيرادي لبعض الأسماء يشع ومضة نور لمن يعرف شيئا عن الباقين فيسهم بما لديه ممن لم ترد أسماؤهم[٢٦].

هذه الكوكبة المباركة التي استطاعت بتوفيق الله ، ثم بفضل ما غرس فيها من بذرة مباركة انعكست على ما بذلوه من عطاء مقرون بالإخلاص ، والنزاهة في تغطية أعمال إدارات أبها الحكومية من خلال العقود الثلاثة المشار إليها سلفا ، حلت تدريجيا مع من سبقهم في إدارة الأعمال الحكومية المتنوعة خلال العقد الرابع ، والخامس في القرن الهجري الماضي ممن تلقوا دراستهم في المدرسة الرشيدية في أواخر عهد الدولة العثمانية ، وقد علمت من بعضهم العم عبد الله إلياس ، وسعيد الغماز ، وعلي المغيدي ، أنهم كانوا يدرسون باللغة التركية ، وأن مدة الدراسة ست سنوات سنتان ابتدائي ، وسنتان متوسط ، وسنتان (عالي) . هكذا كان سيردراستهم ومدتها ، ومن حسن الحظ أن اللغة التركية كما هو معلوم كانت بالأحرف العربية قبل أن يحولها " أتاتورك " للأحرف اللاتينية ، ولهذا كانت خطوطهم حسنة ، واستطاعوا تحسين تعبيرهم من خلال الممارسة وصقل مواهبهم بمخالطة المتعلمين في زمانهم[٢٧] .

وهؤلاء الدارسون أيام الدولة العثمانية هم جيل المعاناة والمقاساة ، والمكابدة معاناة شظف العيش ، ومقاساة اضطرابات الأحوال الأمنية ، ومكابدة قسوة الحياة لتدني الأمور المعيشية والصحية ، فهذه الأمور متضافرة أدت إلى شل حركة العلم والتعلم ، إلا في أضيق الحدود . فقد كان على رأس قائمة المذكورين العم عبد الله عبد الرحمن إلياس ، وزملاؤه في الدراسة ورفاق دربه في العمل : كل من محمد رضا ، والحسن بن عثمان ، وسعيد الغماز ، والشريف عبد الله والشريف علي ، والوالد حسن بن مستور هؤلاء

الأشخاص المحدودون وقد يكون معهم من لم يحضرني اسمه الآن في حدود ثلاثة أو أربعة أشخاص يؤدون أعمالاً مساندة ، وكان على رأس الجميع رئيس مالية أبها الشيخ عبد الوهاب بن محمد أبو ملحة ، فقد استطاعوا بعزيمة الرجال القوية وهمة صادقة مقرونة بالإخلاص أن ينشئوا جهازاً للمالية خلال عقد من منتصف الأربعينيات إلى منتصف الخمسينيات في القرن الهجري الماضي وكانت أعباء ذلك الجهاز تفوق جهود عشرات الموظفين ، منهم المعنيون باستقبال زكوات الحبوب ، والمواشي لمنطقة عسير المترامية الأطراف من ظهران جنوبا إلى زهران شمالاً ومن تثليث شرقا إلى درب بني شعبة غربا مئات القرى ، ويقطنها مئات الآلاف من الأفراد في مساحة لا تقل عن (٤٠٠ × ٤٠٠) كيلو متر ، وتنظيم صرفها على متطلبات الحكومة من إمارات وأخوياء ، وعساكر دفاع ، وشرط ودوريات ، وأفراد هجانة التي كانت تؤدي أعمال رجال الشرطة قبل إيجادها ، ولعلها منسوبة إلى الهجن وهي " الجمال واسطة تنقلاتهم " ، وذروة الجهود بذلوها أعوام ١٣٥٢هـ و ١٣٥٣هـ و١٣٥٤هـ عند تجهيز العساكر النظامية في شكل أخوياء ، ورجال القبائل الذين استنفروا للدفاع ، وهم بالآلالف في قمع حركة الإدريسي ، والمساهمة في إطفاء نار الخلافات المتأججة مع اليمن عام ١٣٥٣هـ ، وجزء من ١٣٥٤هـ ، ومنهم القائد حيدر أفندي الذي أسندت إليه قيادة الدفاع بأبها في أوائل العقد السادس من القرن الهجري الماضي حتى حل محله القائد عزيز بك الذي جيء به من مكة المكرمة : أما الأول فهو من مواليد أبها ومتخرج في الرشدية ، وربما درس الأمور العسكرية في الآستانة ومنهم أيضا محمد أحمد قدسي الذي شغل مدير شرطة جيزان في أواخر الخمسينيات وجيء به قائدا لقوة شرطة أبها في أوائل الستينيات ، ثم رقي مديرا لشرطة أبها بعد وفاة المدير السابق حسين حلمي[٢٨].

ومنهم حسين عبد الله قدح الذي أنشأ جهاز إمارة القنفذة الإداري في عهد الأمير "بن زعير" في أوائل الخمسينيات الهجرية من القرن الماضي ، ومنها نقل إلى إمارة جيزان في عهد الأمير الشويعر ، وقد نقل إلى جهاز إمارة أبها الإداري في أوائل السبعينيات الهجرية ، وشغل رئاسة بلدية أبها فترة من الزمن . ومنهم من أسرة آل خنفور ثلاثة هم رشدي ، وعلي بن عبد الله ، وعبد الله بن علي بن حسن قاموا بأعمال كتابية في الماليات متنوعة ، وكان أبرزهم الأخير حيث عمل إدارياً ، ومحاسباً بارزا في الجيش في الخمسينيات ، وفي أبها في الستينيات ، ومنهم محمد دماك الذي عمل في سلك الشرطة ووصل رتبة رائد ، وأحمد حيدر ، ومحمد حيدر ، ومحمد بن عزيز ، وقريبه

محمد أمين ابن عزيز وحسين أفندي ، ومنهم من أدار مراكز مرموقة كأحمد أبو هليل الذي أدار رئاسة ديوان إمارة عسير في العقد السادس الهجري من هذا القرن الماضي ، ثم رئاسة مالية أبها في العقد السابع بالإضافة إلى أعماله السابقة في إدارة مالية القنفذة " مدير مالية وجمارك " في العقد الخامس من القرن نفسه ، ومنهم أخوه (صالح أبو هليل) الذي تدرج في الأعمال المالية حتى وصل " مدير عام خزينة " بوزارة المالية التي حل محلها مؤسسة النقد حاليا ، وذلك في الستينيات الهجرية ومنهم أيضا حسين أفندي الذي اشترك في لجنة تحديد حدود اليمن عام ١٣٥٣هـ ، ومنهم حسين بن علي النحاس الذي عمل مدير الشئون الإدارية والمالية في شرطة أبها منذ تأسيسها عام ١٣٥٥هـ حتى أواخر العقد السادس من هذا القرن ، وشد من أزر مديري الشرطة بدءا من طلعت بك وفا ، فسالم شوقي ، ثم صالح باخطمة في الخمسينيات ، وحسين حلمي في الستينيات ، وكان دوره بارزاً في تدعيم الأمور المالية والإدارية ، ومساهمته في إدارة الأحوال الجنائية كانت ملموسة الأمر الذي أكسبه ثقة مديري الشرطة المشار إليهم(٢٩) . وبالتالي يمكننا أن نوجز الحديث عما سبق ذكره ، فنقول : -

إن مجموعة المعاناة المشار إليها سلفا استطاعت إدارة الأعمال الإدارية ،والمالية طيلة عقد الأربعينيات ، والخمسينيات في كافة إدارات ومصالح أبها الحكومية العسكرية والمدنية ، فبالإضافة إلى الأحوال السيئة التي صاحبت أوقات تعليمهم أيام الدولة العثمانية فإن إداراتهم لهذه الأعمال كانت في ظل ظروف في منتهى القسوة ، فكابدوا معاناة في التعليم ، ومقاساة في أوقات العمل للأسباب المشروحة سلفا واستطاعوا بعون الله إيصال السفينة إلى منتصف الطريق .

كذلك جيل عبد المالك طرابلسي رائد ومؤسس أول مدرسة نظامية عام ١٣٥٥هـ وخريجو هذه المدرسة - والمسماة المدرسة الأميرية والتي حول اسمها مؤخرا إلى المدرسة السعودية - تابعوا المسيرة بتوجيه ، ومساندة من المجموعة السابقة ، واستطاعوا تغطية ما تتطلبه الأعمال الحكومية في شتى الإدارات ، والمصالح التي كانت قائمة ذلك الوقت طيلة العقود الثلاثة السادس ، والسابع ، والثامن الهجرية حسبما سبق شرحه ، وتمكنوا بفضل الله من إيصال السفينة إلى بر الأمان في منتصف التسعينيات وبالتحديد في عام ١٣٩٦هـ افتتح في أبها فرعا جامعتي الإمام محمد بن سعود ، وجامعة الملك سعود ، وتبعه كلية المعلمين ، وكليات تربية البنات ، وكلية العلوم الطبية ، والكليات التقنية ،

والمعهد الثانوي للمراقبين ، والمعهد الثانوي الصناعي ، والمعهد الثانوي التجاري وهذه المؤسسات التعليمية وفروعها وأقسامها التي ربما تربو على ثلاثين تخصصا متنوعا يغذيها مئات المدارس الابتدائية ، فعشرات المتوسطات ، والثانويات مما شكل رافدا غزيرا وينبوعا ثرا دفع بالآلاف من المتخرجين الذين أخذت أفواجهم تتبارى في الانتظام لإدارة دفة الأعمال في المصالح الحكومية في شتى التخصصات من إدارية ، ومالية ، وطبية ، وقانونية ، وفنية ، وزراعية ، ومهنية ، وهندسية ، وصناعية ، وتعليمية وغيرها ، وانعكس ذلك على الساحة الأدبية وانطبعت بصماته على صعيد الثقافة العامة ، والوعي العام .

وللحقيقة ، والتاريخ فإن أنشطة وزارة المعارف ، والرئاسة العامة لتعليم البنات بوحي من سياسة حكومتنا الرشيدة ، وبفضل خطة حكيمة مدروسة ، وبتوفيق قبل ذلك من الله استطاعت إيصال رسالتها ، وتوسيع نطاق خدماتها التعليمية التي غطت السهل ، والجبل، والمدن ، والقرى ، والهجر ، والبادية التي أخذت على عاتقها ملاحقتهم بخدماتها التعليمية أينما كانوا وحيثما وجدوا ومهما رحلوا وبعدت بهم الشقة فلا مناص من متابعتهم ولا مفر من ملاحقتهم حتى صار التعليم كالهواء يسايرهم أينما حلوا ويعايشهم حيثما ذهبوا صغارا ، وكبارا ، أطفالا ، وشبانا ، ورجالا ، وكهولا نساء ، أو رجالا فتحقق بذلك ماتصبو إليه حكومتنا المباركة أيدها الله برجالها المخلصين .

وانتشر التعليم ، ودخل معه الوعي ، والعلم ، والمعرفة ، والثقافة إلى كل بيت بفضل الله ثم بعون الحكومة الرشيدة ، وذلك بتعيين آلاف المدرسين ، والمدرسات ، وبحسن تصرف وزارة المعارف ، والرئاسة العامة لتعليم البنات . ومع نور العلم والمعرفة تحسنت الأوضاع الاقتصادية ، ونمت الأحوال المادية فانعكس ذلك على الأحوال المعيشية ، وتشييد المساكن بعد أن شقت لها الطرق ، وأوصلت لها خدمات الكهرباء ، والهاتف وصار تحولا بل نقلة كبيرة فأصبحت المدن ، والقرى ، والهجر متساوية لا تلمس الفرق بينها ، وهذا من فضل الله ثم بفضل رعاية واهتمام حكومتنا الموفقة ، وما بذلته من جهود مضنية ، وما أنفقته من مبالغ سخية وما أنشأته من منشآت ضخمة ، فلها من المواطنين الشكر ، والتقدير ، ومن العلي القدير (إن شاء الله) الأجر الوفير .

الحواشي والتعليقات

١- الرواية الشفاهية من أهم المصادر في تدوين علمي الحديث والتاريخ عند المسلمين ، لكن الأهم في الرواية هو التأكد من صحة سندها ، ومن صدق الراوي في روايته ، ولهذا نجد علماء الحديث قد وضعوا صفات ومعايير لراوي الأحاديث عن طريق علم الإسناد ، بل دونت المؤلفات العديدة في علم الجرح والتعديل ، وكذلك في علم الإسناد . أما علم التاريخ فلم يحظ بالرعاية والاجتهاد وصحة التدوين مثلما حظي به علم الحديث عند المسلمين الأوائل .

٢- هو يحيى بن حسن بن مستور آل محيا من مواليد مدينة أبها عام ١٣٤٩هـ ، تدرج في العديد من المناصب الإدارية بحاضرة أبها ، ولازال على قيد الحياة متمتعا بصحة جيدة ، ويزاول بعض الأعمال التجارية . أوردنا له ترجمة في حاشية رقم (٣٦) من الفصل الأول في كتابنا : - **أبها حاضرة عسير .... دراسة وثائقية** . كما يوجد في مكتبتنا عدة وثائق توضح حياته العملية ، وتوجد ضمن وثائقنا تحت رقم (٢١٠٠) .

٣-هذا الكتاب طبع في مدينة جدة ، بمطابع دار البلاد عام (١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) .

٤- هذا الكتاب طبع في مدينة الرياض ، بمطابع الفرزدق عام (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) .

٥- يوجد صورة من هذه الأوراق ضمن أوراق مكتبة الباحث تحت رقم (٢٢٤٥) .

٦- للمزيد من التفصيلات عن أوضاع منطقة عسير قبل وفي أثناء الحكم العثماني ، انظر على أحمد عيسى عسيري . **عسير من ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م - ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م** (أبها : نادي أبها الأدبي ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ص ١٢١ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس . **صفحات من تاريخ عسير** (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) الطبعة الثانية ، الجزء الأول ، ص ١٣ وما بعدها . وللمؤلف نفسه " وثائق من عسير خلال الحكم العثماني (١٢٨٩ - ١٣٣٧ هـ) **مجلة العرب** جـ٣-٤ (سنة / ٢٨) (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص١٥٤ - ١٧٠ .

٧- هناك العديد من الكتب المنشورة التي بينت أوضاع شبه الجزيرة العربية قبل توحيد المملكة العربية السعودية ، ووضحت أيضا ما كان يسود البلاد من الفتن والقلاقل والاضطرابات ، كما يوجد لدى الباحث مئات الوثائق (غير المنشورة) والتي تصور ذلك العصر وخاصة في جنوبي البلاد السعودية .

٨- تعرضت بعض المؤلفات إلى الأساليب التي شكلت في محاربة الفوضى والفتن في بداية الدولة السعودية الحديثة ، ومن تلك المؤلفات ، كتب خير الدين الزركلي ، وفؤاد حمزة ، وحافظ وهبة ، وأمين الريحاني وغيرهم .

٩- للمزيد من التفصيلات عن أولئك القضاة انظر كتاب : **شذا العبير من تراجم علماء وأدباء ومثقفي منطقة عسير في الفترة ما بين ١٢١٥- ١٤١٥ (منشورات نادي أبها الأدبي ١٤١٥هـ)** وانظر أيضاً كتابنا : - بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (أبها : مطابع مازن ، ١٤١٣ هـ) ص ١٦٨ وما بعدها .

١٠- ويعد الشيخ عبد الله بن يوسف الوابل من أكثر العلماء الذين بذلوا ما في وسعهم من أجل تعليم الناس أمور دينهم ، فلقد كان يقضي جل نهاره وجزءاً من ليله في خدمة الدين وتعليم الناس ما جهلوا في دينهم ، كما كان يقيم حلقات الدروس المتتالية في المسجد وكذلك في منزله . أيضا الشيخ عبد الله القرعاوي بذل جهوداً جبارة في توعية الناس وتدريسهم أمور الدين . كما بذل جهوداً أخرى في نشر المدارس بالمنطقة الجنوبية بهدف تعليم الناس أمور العقيدة

والجوانب الشرعية الأخرى . للمزيد من التفصيلات ، **انظر كتاب شذا العبير** ، ص ٢١٧ ، وانظر كتابنا : - **تاريخ التعليم في منطقة عسير ١٣٥٤ - ١٣٨٦هـ / ١٩٣٤ - ١٩٦٦م**) الجزء الأول ، ص ٢٦٠ وما بعدها .

١١- انظر ترجمة للأستاذ ناصر بن فرج في كتاب تاريخ التعليم في منطقة عسير جـ١،ص٢٤٤ ، كما يوجد ضمن أوراق مكتبة الباحث ترجمة له تحت رقم (١١١٧).

١٢- انظر كتاب تاريخ التعليم في منطقة عسير ، جـ١ ، ص٢٤٦ وما بعدها ، كما يوجد عدة وثائق ضمن مكتبة الباحث ، وجميعها تذكر نبذة عن حياة عبد الرحمن المطوع ، وتوجد تحت الأرقام (١٣٧٠ - ١٣٩١) .

١٣- هذه المعلومات قد وردت في كتابنا : - **تاريخ التعليم في منطقة عسير** . الجزء الأول . ص ٥٢ ومابعدها ، وطريقة حفل ختم القرآن والفرح والابتهاج بالختام قديمة تعود إلى العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة ، ولم تكن توجد في حاضرة دون أخرى وإنما كانت عادة تمارس في معظم الحواضر والمدن الإسلامية الكبرى والصغرى .

١٤- وللمزيد من التفصيلات عن تاريخ الشرطة في مدينة أبها ، وعن السيد طلعت وفا ، انظر . كتابنا : - **أبها حاضرة عسير - دراسة وثائقية .** (الفصل السادس)

١٥- وللمزيد من المعلومات عن عبد الرحيم الأهدل ، وعبد المالك الطرابلسي ، ومحمد إسماعيل الإبي انظر كتاب **تاريخ التعليم في منطقة عسير** ، ص ٢٢٧ ، كما يوجد ضمن مكتبة الباحث العديد من الوثائق والخاصة ببعض تلك الشخصيات ، وتوجد تحت الأرقام الآتية (١٢٩٩- ١٣٠٨) مجموعة رقم (١) .

١٦- إذا ما حاولنا معرفة إمكانات الناس في العصور الماضية ، وخاصة في بناء المنازل ومرافقها ، وكذلك في تأثيثها وتزيينها ، فإننا بلا شك سوف نلاحظ (البساطة) في البناء وفي المواد المستخدمة ، وجميع الإمكانات الأخرى . وللمزيد من التفصيلات عن الحياة الاجتماعية والأبنية وأنواعها في منطقة عسير انظر : غيثان بن علي بن جريس . **عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ١١٠٠ - ١٤٠٠هـ/١٦٨٨-١٩٨٠م** (جدة دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص٣٥ وما بعدها .

١٧- عندما نقلب صفحات التاريخ ونطالع أخلاقيات وصفات المعلمين والمتعلمين في الماضي ، ثم نقارنها بما نشاهد من أخلاقيات عند بعض المدرسين وطلاب العلم في يومنا الحالي ، فإننا لن نجد وجه مقارنة حيث كان الأوائل (رحمهم الله) قمماً بل جهابذة في سلوكياتهم وعلمهم سواء أكانوا معلمين أم متعلمين .

١٨- انظر ترجمة مطولة للأستاذ / محمد أحمد أنور في كتاب : - **تاريخ التعليم في منطقة عسير** الجزء الأول ، ص ٢٣١ وما بعدها .

١٩- وعن كل من الأستاذين / محمد إبراهيم النعمي ومفرح بن محمد الخلفي انظر الملحق رقم (٤) في كتاب : - **أبها حاضرة عسير** .... دراسة وثائقية . و١هذا الملحق عبارة عن نبذة كتبها لنا الأستاذ / محمد أحمد أنور أورد فيها ترجمة مختصرة لكل من الأستاذين الآنفي الذكر .

٢٠ - مقابلة مع الأستاذ / يحيى بن حسن مستور بمنزله الكائن بحي شمسان بمدينة أبها ، كذلك من

نبذة كتابية زودنا بها في **تاريخ التعليم في منطقة عسير** ، ص ٥٧ . أيضا انظر ترجمة الأستاذ / محمد عمر رفيع ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ وما بعدها .

٢١ - شاهد الباحث المبنى الذي كان مستخدماً بالمدرسة ، وكذلك المبنى المجاور له ، ولازالت تلك المباني ماثلة للعيان حتى الآن .

٢٢- هذه المعلومات قد سمعها الباحث من ابن مستور ودون أغلبها في كتاب تاريخ التعليم في منطقة عسير .

٢٣- الباحث عرف كلاً من الأستاذين / محمد النعمي ، وسعيد بن مسفر ، وكلاهما يتصف بالخلق الحميد ولطف المعشر وحسن المعاملة .

٢٤- لقد فصلنا الحديث عن المؤسسات الإدارية السالفةالذكر ، وعن بعض الرجال الذين وردت أسماؤهم وذلك في كتاب : - **أبها حاضرة عسير ... دراسة وثائقية** .

٢٥- وعن إدارة المالية بأبها فقد أطلعنا على عشرات الوثائق المتعلقة بشؤون الأموال في منطقة عسير خلال القرن الرابع عشر الهجري ، وجميع تلك الوثائق توجد ضمن أوراق مكتبة الباحث ، كما زودنا مدير مالية أبها الحالي ، الأستاذ / محمد بن عبد الوهاب أبو ملحة ، بنبذة مختصرة عن التطور التاريخي للمالية منذ تأسيسها . وتوجد هذه المذكرة ضمن أوراق مكتبة الباحث تحت رقم (٢٠٠٧).

٢٦- للمزيد من التفصيلات عن الدفاع والمدرسة الحربية في أبها خلال القرن الهجري الماضي انظر . **كتاب تاريخ التعليم في منطقة عسير** ، الجزء الأول . ص ١٨٦ وما بعدها .

٢٧- سمع الباحث معلومات مشابهة لما ذكر ابن مستور من رجلين عاشا منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وماتا في عام ١٤١٧هـ ، وهما : - الشيخ / عبد المالك بن عبد القادر الطرابلسي ، والشيخ / عبد الله بن عبد الرحمن بن الياس .

٢٨- للمزيد من التفصيلات عن الشرطة ، انظر ما ذكرنا عنها في كتابنا : **أبها حاضرة عسير .. دراسة وثائقية (الفصل السادس)** .

٢٩- هناك عشرات الرجال الذين عاشوا في مدينة أبها خلال القرن الرابع عشر الهجري ، وكان لهم صولة في كثير من الأمور السياسية والحضارية حبذا لو قام أحد الباحثين فتصدى لموضوع دراسة عنهم ، وعما خلفوا من آثار حسنة للأجيال التالية لهم .


قضية ورأي

الجذور التاريخية لأدب الاطفال

عند العرب ، والإفادة منها

د . محمود إسماعيل عمار

يعتقد كثير من الناس أن « أدب الأطفال » فن حديث ، أفرزته الحضارة الغربية مع ما أفرزت من معطيات فكرية ومادية ، تمثّلت في المدارس الأدبية ، والمذاهب النقدية ، والاتجاهات الفلسفية ، والأجهزة والمخترعات ، ونما واتسع عند الآخرين بفضل قنوات الاتصال بالغرب الذي عُني بهذا الأدب في الحقبة الأخيرة عناية كبيرة .

والحق أن الجديد في « أدب الأطفال » إنما هو المصطلح ، وبعض التقنيات الفنية ، أما المضمون والهدف ، والأهمية ، وكثير من الأشكال ، فقد وجدت منذ وجدت الطفولة ، وواكبت الإنسانية في مسيرتها ارتقاءً وتقدماً ، فكان هذا الأدب قرين التربية وصنوها وملازماً لها ، تعتمد عليه التربية في تحقيق كثير من أغراضها ، وقيمها ، وأهدافها .

فكثير من القصص والحكايات والأساطير التي نسجتها ذاكرةالشعوب ، وتوارثتها الأمم ، وتناقلتها الأجيال ، هدف إلى تربية النشء ، وتوجيه الأطفال ، وبث القيم والأفكار والاتجاهات والمعارف في عقولهم وقلوبهم ، وفي عقائدهم وأعمالهم ، كحب الخير ، والبطولة ، والشجاعة ، والكرم ، والتضحية والفداء ، والغيرة على العرض ، والمروءة ، ومساعدة الضعفاء ، وكراهية : البخل ، والجبن والكذب ، والسرقة ، والغش ، والخداع ، والرذيلة ..

وكانت جناية الحضارة الحديثة أن قضت أو كادت على هذا الزخم الهائل ، الذي كانت تعجّ به حياة البادية ، والقرى ، والريف ، حين أضاءت جوف الليل بالمصابيح الكهربائية ، وملأت البيوت بالأجهزة ، وشغلت أوقات الناس بأنواع التسلية ، فقلّ الاهتمام بقصص البطولة والمغامرات ، وأخبار المسافرين والتجار ، وعجائب الرحلات والأدغال ، وقد كانت البيوت قديماً تزخر بهذه الفنون الأدبية ، حين يتحلق الأطفال حول آبائهم وأمهاتهم ، أو أجدادهم وجداتهم ، في ضوء مصباح خافت ، أو في ضوء القمر ، أو في الليالي الشتوية الباردة ، فلا تغمض أجفانهم إلا على أنغام : الشاطر حسن ، وعلاء الدين ، وافتح ياسمسم ، وعقلة الإصبع ، وغيرها ، على الرغم مما فيها من صور الخرافة والسحر أحياناً

وفي تراث البشرية الهائل ، نرى أمراً عجيباً ، يلفت النظر : لقد حرص أتباع جميع الديانات الوثنية منها والسماوية ، والمحرفة منها والصحيحة ، على أن تقدم للطفل لوناً من ألوان الأدب ، يعبر عن « الدين » والعقيدة[1].

ولا يختلف « أدب الأطفال » في مفهومه عن الأدب بمعناه العام ، إلا في كونه موجهاً إلى فئة لها ظروف وإمكانات خاصة ، هم الأطفال .. وهذه الطفولة لها معايير ومواصفات تتحكم في هذا الأدب ، وتحّدد مستواه اللغوي والفكري ، وطريقة التناول ، ولهذا كان أصعب مرتقى ، وأعسر منهجاً من الأدب العام ، ولا يتجاوز فيه عن توافر الأسباب الفنية التي تمنح النص القدرة على الإمتاع ، والسيرورة ، والتأثير ، وتجتاز به حدود الزمان ، حتى إن الخيال ، واللاشعور ، والصراع الداخلي للطفل تصبح عناصر بعث واستقطاب في أعماق هذه النصوص .

للطفولة معاييرها من حيث قلة الخبرة ، وضآلة التجربة ، وضحالة الفكر ، ومحدودية القدرة على البحث والاستنباط ، ولكن لها فطرتها الرحبة ، وآفاقها التخيلية الواسعة ، ورغبتها الجامحة في استكناه المجهول ، وحب الاستطلاع ، والربط بين الأمور المتباعدة ، والميل إلى التحليل والتركيب ، وتشكيل عوالم خاصة يعيش فيها الأطفال داخل عالمنا المحسوس .. وهذه اعتبارات مهمة في بناء العمل الإبداعي للطفل " كما أن أدب الطفل في الوقت نفسه اختزال للثقافات والمفاهيم والقيم والطموحات المستقبلية ، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن طريقة الإيصال للطفل ، هي بحدّ ذاتها - كما يقال - عمل تربوي ، يتطلب تفهما كاملاً لنفسية الطفل ، وظروفه ، وإمكاناته المختلفة "[2] .

وقد خلفت الأمة الإسلامية العريقة تراثا ضخماً من أدب الأطفال . لم يتوفر أحد لدراسته دراسة شاملة حتى اليوم ، وأحسب أنه يحتاج إلى تضافر الجهود ، وتعاون المؤسسات المتخصصة ويتمثل هذا التراث في :

- أغاني المهد : التي كانت تنشدها الأمهات لأطفالهن عند النوم أو المداعبة ، أو اللعب ، أو التفوق على الأتراب ، أو ظهور مرحلة من مراحل النمو ، أو استشفاف الغيب والتطلع إلى المستقبل ، وتخيل الطفل في مراحل عمره المقبلة ، وهو ما يعرف بـ « شعر الترقيصي » لأن الأمهات يرقصن أولادهن به ، من مثل قول أم عقيل زوج أبي طالب ، ترقص ابنها عقيلاً وهو لا يزال في المهد :

إنّ عـقـيـلاً كـاسـمـه عـقـيـلُ	وبأبي الملقّفُ المحـمـول
أنت تـكون مـاجـدُ نبـيـلُ	إذا تـهـبّ شـمـألُ بـلـبـلُ

وقد أورد الدكتور / شوقي ضيف شعراً على هذا النحو ، لأم الفضل الهلالية ، وهي ترقص ولدها : عبد الله بن عباس ، وشعراً لضباعة بنت عامر ، وهي ترقص ابنها : المغيرة بن سلمة المخزومي[٣] .

ومن دواعي الأسف أن هذا النوع من أدب الأطفال ، قد ضاع أكثره ، لأنه أقرب إلى روح الأدب الشعبي ، ولم يعن الرواة والأدباء بتدوينه وجمعه ، والمحافظة عليه .

●●●

- الأناشيد الجماعية : كان للعرب أناشيد جماعية ، ينشدونها في الأعمال المشتركة، كالبناء ، وحفر الآبار ، ونتح المياه ، وحداء الإبل ، وفي مجالسهم وأسمارهم ورحلاتهم ، وفي مناسباتهم وأفراحهم وأحزانهم ، وفي عباداتهم وما فيها من تلبية ومكاء وتصدية ، سواء عرف قائل هذه الشعر ، أوضاعت نسبته إلى قائله .. وفي كتاب فتوح البلدان للبلاذري ، فصل طويل يعرض فيه الأرجاز التي نظمت قبل الإسلام في حفر آبار مكة[٤] ، وفي المحبر لابن حبيب فصل طويل كذلك عن تلبيات القبائل للأصنام والأوثان[٥] وكذا صنع أبو العلاء المعري في رسالة الغفران ، وأورد ابن هشام في السيرة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر ببناء مسجده في المدينة ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، وارتجزوا وهم يبنونه يقولون :

لا عـيـش إلا عـيـش الآخـره	اللهم ارحم الأنصـار والمهـاجـره

وقال قائل :

لئن قـعـدنا ، والنبي يعـمـل	لذاك منا ، العـمـل المضلل[٦]

وكان للنساء والأطفال مشاركة كبيرة في الأناشيد الجماعية ، من خلال حفلات الأعياد والأعراس ، والمناسبات ، فقد ذكر ابن رشيق : أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر ، اجتمع النساء يلعبن بالمزاهر - يرقصن وينشدن الشعر - ويتباشر الرجال والولدان - الناشئة والأطفال بهذه المناسبة[٧] ، ويفهم من خبر أم نبيط في الإصابة أنها كانت تنشد في زفاف جارية على زوجها ومعها نسوة يرددن :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم

ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قولي :

ولولا الحنطة السمراء ما سمن عذاريكم[8]

كما كان للنساء دور في أناشيد الحروب ، والتشجيع عليها ، والنواح على الموتى ، فقد كانت نساء الأنصار يبكين شهداء بدر ، وبكين حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذكر ابن هشام أن الناس عندما التقوا في هذه الغزوة ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ، ويحرضنهم . فقالت هند فيما تقول :

ويهاً بني عبد الدار ويها حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

وتقول :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق[9]

وكان الأطفال يسمعون هذه الأناشيد الجماعية ، ويشاركون فيها ، ويحفظون ما يحفظون منها ، وقد يصنع لهم الكبار قطعاً خاصة في المناسبات ، أو يقعون على نصوص شعبية مجهولة القائل فينشدونها ، أو يؤلفون بدوافع الطفولة ألفاظاً غضة تناسب طبيعة الطفولة ، فيعبرون بها عن مشاعرهم بإيقاعات جماعية ، لما وقر في أعماقهم من ميل إلى الإنشاد ، ورغبة في التعبير عن مواقف الفرح والسرور ، وحب للعمل المشترك ، والألعاب الجماعية كما هي طبيعة الأطفال في كل عصر حين تجمعهم المناسبات ، وتوحدهم المشاعر . وفي معلقة امرىء القيس ، ومعلقة عمرو بن كلثوم إشارة إلى بعض ألعاب الصبيان الجماعية ، كلعبة الخذروف ، والتدرب على الخيل ، والمبارزة بسيوف الخشب ، ولعب الكرة[10].

وذكر ابن القيم في زاد المعاد ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما دنا من المدينة، حال عودته من تبوك خرج الناس لتلقيه . وخرج النساء والصبيان والولائد، يقلن :

طلع البـــدر علينا   من ثنيـــات الـوداع
وجب الشكر علينا   ما دعـا لله داع[11]

- الاسترضاع في البادية : كان من عادة العرب أن يرسلوا أطفالهم إلى البادية ، لتصح ألسنتهم ، وتقوى أبدانهم ، وتصان سلائقهم ، ويتعلموا اللغة ، ويكتسبوا مفرداتها صحيحة ، وليسمعوا الشعر ويحفظوه ، ويرووه ، ويعرفوا أخلاق البادية وتقاليدها وعاداتها ، ويتربوا في أجوائها ، فتصفو قرائحهم ، وترهف فطرهم ، ويشهدوا الطبيعة في ثوبها الأول ، فيخاطبونها ، ويتلقون عنها دروسهم حول مسيرة الحياة ، وقدرة الخالق وأسرار الكون ، ويروا في أرجائها المخلوقات بأنواعها فيتعايشون معها ، ويتأملون صنعها ، وربما رعوا الغنم ، أو رافقوا الرعاة ، وتعلموا منها ولها كثيراً من الأخلاق والعادات والدلائل والشواهد ، وكل ذلك من صميم أدب الأطفال .

ولما ولد الرسول صلى الله عليه وسلم التمس له جده عبد المطلب المراضع ، ثم استرضع له حليمة السعدية وكان صلى الله عليه وسلم يعتز باسترضاعه في بني سعد ، فيقول لأصحابه ، أنا أعربكم ، أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر[12] .

وكذلك كان يصنع الخلفاء و الأمراء ، وذوو اليسار ، فيرسلون أولادهم إلى البادية ، فكان ذلك تطبيقاً عملياً لأهداف أدب الأطفال ، يخرجه من التنظير إلى الممارسة ، ويحرره من قيود الكبار إلى رحالة الحياة ، واحتياجاتها . وهذا أبو الطيب المتنبي في القرن الرابع الهجري يذهب إلى بادية السماوة ، ويعد ذلك من أسباب نبوغه وتفوقه . يقول بلا شير :

" وكان ثمة اعتقاد قديم جداً ، يذهب إلى أن اللغة العربية ، التي يتكلمها الأعاجم ، تنزع دوماً إلى فقدان فصاحتها ، فلا بد ، والحالة هذه ، لكل من جعل من هذه اللغة آدارة للدرس من العودة إلى ينابيع أكثر أصالة ، ألا وهي اللهجات البدوية ، وإلى البدو الرحل، ابتغاء الفصاحة والأناقة التي انتفت عن لغة الحضر ،وكان النحاة واللغويون ومؤرخو الأدب يرحلون في طور الحداثة ، إلى الصحراء ليمكثوا فيها زمناً ، قد يطول أحياناً ، وكانت تلك العادة لا تزال مرعية حتى أوائل القران الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، فقد أقام أحد المعاصرين ، وهو اللغوي ابن دريد اثنتي عشرة سنة بصحبة بدو عُمان "[13].

- التأديب عند المعلمين : ظهرت في المجتمع العربي طائفة من المعلمين ، تسمى

بالمؤدبين ، كانوا يتولون تعليم أطفال الخلفاء والموسرين مايناسبهم من تراث الأمة ، وما تطمح إليه نفوس آبائهم من الثقافة العربية والإسلامية ، فيلقنونهم الشعر ، والخطب ، والقصص ، والنوادر ، وأخبار العرب ، وأيامهم ، وأنسابهم في الجاهلية والإسلام .

وقد نقلت لنا كتب التراث كثيراً من وصايا الخلفاء والآباء لمعلمي أو مؤدبي أبنائهم يرشدونهم فيها إلى أساليب التعامل معهم ، وما يدرسونهم ، واختيار ما يناسب أعمارهم من ذلك وصية عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ) لمؤدب ولده[١٤]، ورسالة عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) لمؤدب ولده[١٥] ، وأكثر من وصية لهشام بن عبد الملك (ت١٢٥)[١٦] ، وكذا لهارون الرشيد (ت ١٩٣ هـ) حيث أوصى الكسائي والأحمر النحوي[١٧] ، ووصية عبد الملك بن صالح (ت ١٩٦هـ)[١٨] وغير ذلك ، يقول هشام لمعلم ولده : " وأول ما أوصيك به ، أن تأخذه بكتاب الله ، ثم روه من الشعر أحسنه ، ثم تخلل به في أحياء العرب ، فخذ من صالح شعرهم ، وبصره بطرف الحلال والحرام ، والخطب والمغازي "

ويقول الرشيد لمؤدب الأمين : أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصّره مواقع الكلام ، وبدأه .

وواصلت مسيرة التعليم والتهذيب جهودها في تقديم المواد الثقافية ، والغذاء الروحي للأطفال ، ذكوراً وإناثاً ، في الكتاتيب والمدارس ، وأسهم التربويون المسلمون من أمثال القابسي وابن مسكويه ، والغزالي ، وابن عرضون ، وابن جماعة ،وابن خلدون وغيرهم في تحديد المسارات التربوية النافعة لتكوين فكر الأطفال ، وعواطفهم ، ومظاهر سلوكهم .

●●●

ـ وصايا الفتيات عند الزواج : اقتضت عادة الشعوب ، أن تنتقل المرأة عند الزواج من بيت أهلها الذي نشأت فيه ، ودرجت عليه إلى بيت لم تعرفه ، ولم تألفه، وتفارق أبويها وإخوتها إلى أسرة جديدة ، وزوج لم تخالطه من قبل ، ومهما بلغت معرفتها بهذاالزوج - إذا كان قريباً أو مخالطاً - فإنها بعد الزواج ستطلع منه على ما لم تطلع ، وتبصر مالم تبصر ، وقد تنكر ما لم تعهد أو تألف ، وستستقبل مرحلة جديدة من الوجود الإنساني بالإنجاب ، حين تصبح أماً لطفل أو أكثر بعد عام أو عامين .

وإدراكاً من العرب لهذه الحقائق المهمة في حياة الفتيات ، المقدمات على الزواج ،

فقد جرت عادتهم على تزويد الآباء والأمهات بناتهم في هذه المرحلة بالنصائح والوصايا ، التي تنفعهن في حياتهن الجديدة ، حتى أصبح ذلك عندهم عادة وتقليداً ، فقد سأل هشام ابن عبد الملك أبا النجم العجلي ، مالك من ولد ؟ قال : ابنتان ، قال : أزوجتهما ؟ قال : زوجت إحداهما ، قال : فيم أوصيتها ليلة أهديتها ؟ قال : قلت لها : ثم أنشد شعراً[١٩]، وقد نقلت لنا كتب التراث أكثر من وصية في هذا المعنى . ومن ذلك :

- وصية عامر بن الظرب حين زوج ابنته من ابن أخيه ، فقال لأمّها : ياهذه مرى ابنتك فلا تنزلن فلاة إلا معها ماء ، وأن تكثر استعمال الماء ، فلا طيب أطيب منه ، وإن الماء جعل للأعلى جلاء وللأسفل نقاء ...إلخ ما قال[٢٠] .

وصية الفرافصة إلى ابنته نائلة حين حملت إلى زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال لها أبوها : يابنيّة إنك تقدمين على نساء من نساء قريش ، هن أقدر على الطيب منك ، فاحفظي عني خصلتين : تكحّلي ، وتطيبي بالماء ، حتى يكون ريحك ريح شن أصابه مطر[٢١] وفي رواية كان مما قال لها : احذري مواقع أنفه ، واغتسلي بالماء القراح، حتى كأنك شن ممطور[٢٢] .

- وصية أم ، أم إياس بنت عوف لابنتها ليلة زواجها . قالت : أي بنّية ! إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت ، وعشك الذي فيه درجت ، إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة يكن لك عبداً ، ولا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح .. لا تعصين له أمراً ، ولا تفشين له سراً .. وإياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً ، والكآبة بين يديه إذا كان فرحاً .. وكوني أشد ما تكونين له إعظاما ، يكن أشد ما يكون لك إكراما ، وأشد ما تكونين له موافقة يكن لك أطول ما تكونين له موافقة ، واعلمي انك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت ، والله يخير لك[٢٣] .

ويظهر من ذلك نفاسة المعاني التي كانت تطرقها هذه الوصايا ، وملاءمتها للموقف والحالة الجديدة التي تطرأ على حياة الفتاة بالزواج ، ولا سيما إذا تذكرنا السن المبكرة التي كانت تزف فيها البنت إلى بيت الزوجية ، في تلك البيئات البدائية البسيطة ، مما يدخل هذه النصوص في صميم أدب الأطفال .. وتأمل الإلحاح على مداومة التطهر ، والمواظبة على الاغتسال ، والإكثار من استعمال الماء تحقيقاً للوضاءة ، والنظافة ، وموافقة الزوج ، وطاعته ، ومراعاة شعوره ، وتعهد مواقع نظره حتى لا يرى إلا أجمل

صورة ، ومواقع أنفه حتى لا يشم إلا أطيب ريح ، وقد أوصت امرأة أبنتها بوصايا ، فكانت منها « وليكن أطيب طيبك الماء » والعرب تقول : أطيب الطيب الماء[٢٤] .

ثم أنظر إلى الصدق فيما تقدم الأم لابنتها من نصائح ، مستمدة من تجربتها في الحياة وخبرتها بالأمور ، والحياء الفطري الذي دعا عامر بن الظرب إلى أن يقدم نصائحه لابنته التي تزف إلى بيت ابن أخيه من خلال أمها ،لأنها أقدر على التأثير فيها ، والتفاهم معها ، وأكثر تلاؤماً بحكم الأنوثة ، ذات المفاهيم المشتركة ، وأقدر على مكاشفتها من أبيهاالذي قد لا يجرؤ على التحدث في بعض الأمور لحساسيتها .

●●●

- نصائح الآباء لبنيهم : اقتضت سنة الحياة أن يحرص الآباء على خير الأبناء ، وأن يشفقوا عليهم ، ويوجهوهم إلى ما فيه مصلحتهم وسلامتهم ، يسبكون خبرتهم في الناس وتجربتهم بالأمور ، ومعرفتهم بالأحداث ، وفهمهم للحياة عناقيد ذهبية ، يقدمونها لفلذات الأكباد ، وأشقاء الروح ، يعظونهم ويبصرونهم ويصوغون خلاصة أفكارهم وتجاربهم ومعارفهم في قطع أدبية مؤثرة .

وقد حفل الأدب العربي بنصوص كثيرة في هذا المضمار تختلف بين القصر والطول غير أن بعضها قد يبلغ عدة صفحات ، خلاف ما ضاع أو فقد من هذه النصوص ، وقد عقد ابن عبد ربه الأندلسي فصلاً في العقد الفريد بعنوان " مواعظ الآباء للأبناء " أورد فيه جملة من النصائح ، والمواعظ ، والآداب التي خاطب بها آباء مشهورون ، تميزوا بالعقل والحكمة ، أبناءهم ، في عبارات بليغة ، ومعان جليلة ، صادرة من قلب مشفق ، وحس مرهف ، وفكر بصير ، نابعة من تجربة في الحياة ، واستكناه للمستقبل ، فأورد للقمان عليه السلام - من غير القرآن - يعظ ابنه ، ولخالد بن صفوان ، ولأعرابي ، ولعلي بن الحسين (نصين) ولأبي عمرو بن عتبة ، ولعبد الملك بن مروان ، وللأشعث بن قيس ، ولعمر بن الخطاب في ابنه عبد الله ، ولعلي بن أبي طالب مرة يعظ ابنه الحسن ، ومرة يعظ ابنه محمد بن الحنفية ، في نصين طويلين ، وأكثر من نص نسبه بقوله : يقول حكيم[٢٥] .

وبالإضافة إلى ذلك نجد نصوصاً أخرى في المصادر ، مثل : وصية حصن بن حذيفة لبنيه في الأخلاق ، ووصية زهير بن جناب (ت٦٠ق هـ) لبنيه في مواجهة الشدائد ، ووصية أكثم بن صيفي (ت٩هـ) في الحكمة وتدبير الأمور ، ووصية الخنساء (ت٢٤هـ)

تحث أبناءها على الجهاد ،ووصية العباس (ت٣٢هـ) لولده عبد الله في الإخلاص للحاكم، ووصية عمير بن حبيب (صحابي لم يحدد ابن حجر وفاته) لبنيه في تجنب مجالس السفهاء ، ووصية عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ) في طلب العلم ، ووصية عمر بن عبدالعزيز (ت١٠١هـ) لابنه عبد الملك يحثه على استثمار شبابه بالحمد ومعونة والده ، ووصية عون بن عبد الله الهذلي (ت١١٥هـ) لابنه في محاسبة النفس ، ووصية المنصور (ت١٥٨) لولده المهدي يحثه على حفظ الأمة وصيانة الدولة عندما تؤول الخلافة إليه ، ووصية طاهر بن الحسين (ت٢٠٧هـ)لابنه عبد الله حين ولاه ديار ربيعة ، وهي طويلة أوصاه فيها بالتقوى والاقتصاد وحسن التعامل مع الرعية ، وأن يكون قدوة فيما يأمرهم به[٢٦].

إلى غير ذلك مما هو مبثوث في بطون الكتب ، وصحف التراث وهو كثير ، وربما نظموا هذه النصائح شعراً فقد روى المفضل الضبّي أن عبدة بن الطبيب ، لما أسنّ ورابه بصره جمع بنيه يوصيهم فقال :

أبني إني قد كبرت ورابني	بصري ، وفيّ لمصلح مُسْتَمتَعُ
ونصيحةٌ في الصدر صادرةٌ لكم	مادمت أبْصِرُ في الرجال وأسمعُ
أوصيكم بتقى الإله فإنه	يُعطي الرغائب من يشاء ويمنع
وببّر والدكم ، وطاعة أمره	إن الأبر من البنين الأطوع
ودعوا الضغينة لا تكن من شأنكم	إن الضغائن للقرابة توضع
واعصوا الذي يزجى النمائم بينكم	متنصِّحاً ، ذاك السِّمامُ المنقع
لا تأمنوا قوماً يَشِبُّ صبيُّهُمْ	بين القوابل ، بالعداوة يُنْشَعُ[٢٧]

وأكثر ما تكون هذه الوصايا والنصائح ، عندما يتعرض الأبناء للمحن ، أو عندما توكل إليهم الأعباء ، أو عندما يطعن الآباء في العمر ، وتتقدم بهم السن ، فضلاً عما في نفوس الآباء من الغريزة الملحة . والنحيزة الدائمة نحو أبنائهم ، كما قال عمر بن عبد العزيز لولده عبد الملك : إن أحق من تعاهدت بالوصية والنصيحة بعد نفسى أنت ، وإن أحق من وعى ذلك ، وحفظه عني أنت .

- نصائحهم عند حضور الوفاة : إذا أدركت الوفاة المرء ، وظن أنه الفراق ، واجتمع

بنوه من حوله - صغيرهم وكبيرهم - يودعونه بالنظرات ، وأيقن أنه مفارقهم الفراق الذي لا رجعة بعده ولم تزل مسكة من وعي وعقل ، فإنه يتوجه إلى بنيه بالنصائح . وبما يود أن يكونوا عليه بعد ما يفارقهم .

وقد نقلت كتب التراث لنا مجموعة من هذه الوصايا والنصائح . ومن ذلك : وصية نهد بن زيد (جاهلي) لبنيه في دعوتهم إلى الحذر من الناس ، وتغليب سوء الظن ، ووصية ولده دويد بن نهد لبنيه على غرار وصية أبيه ، ووصية علي بن أبي طالب للحسن والحسين بالاستقامة ، والإعراض عن الدنيا ، والتمثل بالقيم ، ووصية معاوية بن أبي سفيان (ت٦٠هـ) لولده يزيد فيما خلف من الملك ، ووصية المهلب بن أبي صفرة (ت٨٣هـ) فقد جمع بنيه ، وأوصاهم بتقوى الله ، ووحدة الصف ، وصلة الرحم ، ووصية عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) فقد أوصى بنيه بالتآلف والتعاون والإعداد للمستقبل من بعده ، وربما كانت بعض هذه النصائح شعراً كما فعل ذو الأصبع العدواني وفي وصيته لابنه أسيد في أسباب السيادة والشرف ، فقد جاء شطر منه نثراً وشطر شعراً وفيه يقول :

أأسَيْدُ إن مالاً ملكت ... فسر به سيراً جميلا
آخ الكرام إن استطعـ ... ت إلى إخائهم سبيلا
أأسيد إن أزمعت من ... بلد إلى بلد رحيلا
فاحفظ وان شحط المزا ... ر أخا أخيك أو الزميلا
ودع التواني في الأمو ... ر ، وكنْ لها سلساً ذلولا
وابسط يديك بما ملكـ ... ت وشيد الحسب الأثيلا

وتبلغ واحداً وعشرين بيتاً . وهي تسير على هذا النمط من النصائح وقد أوردها صاحب الأغاني(٢٨) .

●●●

ثم جاء القرآن العظيم ، وفيه من المواعظ ، والنصائح ، والوصايا ، والقصص ، والأحكام ، والآداب والأخلاق ما يناسب كل الطبقات ، ويلائم الصغار والكبار ، ويدركه العامة والخاصة ، ويفهمه المتخصص وغير المتخصص ، ويفيد منه الصغير والكبير ، بشكل مباشر ، أو بتوظيف هذه المضامين في أشكال جديدة ملائمة .

فقد نقل القرآن الكريم حوار إبراهيم وبنيه ، ويعقوب وبنيه ، ونوح وابنه ولقمان وابنه قال تعالى : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ، يابني : لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم .. يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة ، أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ،إن الله لطيف خبير ، يابني : أقم الصلاة ،وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمشي في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك إن أنكرالأصوات لصوت الحمير ﴾ (لقمان ١٣،١٦-١٩).

وانظر كذلك الأنعام ١٥١ - ١٥٣ ، والإسراء ٢٢ - ٣٨ وغير ذلك .

أورد القرآن الكريم كثيراً من قصص الأمم البائدة والقرى الهالكة ، وقصص الأنبياء والرسل ، وما حدث لهم مع أممهم ، كقصة موسى ، وعيسى ، وإبراهيم ، ونوح ، وسليمان وداود ، ويونس وغيرهم عليهم السلام ، والطفل يقرأ هذه القصص من خلال حفظه أو تلاوته للقرآن الكريم .

أورد القرآن الكريم قصصاً تدور أحداثها حول الأطفال ، والأبناء ، والناشئة ، والفتيان كقصة يوسف وإخوته من أولها إلى آخرها ، وقصةابني آدم ، وقصة موسى وفتاه، وموسى وابنتي شعيب ، والفتية من أهل الكهف ، وحديث عيسى وقصته وهم نماذج للقدوة والاحتذاء . في الإيمان الصحيح ، والسلوك السوى .

ويمكن أن نلاحظ أن لفظ الإنسان إذا جاء مقترنا بالوالدين فإنه يعني الفتوة ومقتبل العمر في أكثر وجوه الدلالة ، كما في قوله : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾ (العنكبوت ٨) وقوله : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ﴾ (لقمان ١٤) وقوله : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ﴾ (الأحقاف ١٥) وكذا قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ (الإسراء ٢٣)

تضمن القرآن الكريم كثيراً من أحكام الرضاعة ، والحضانة ، الفصال ، فصلت الشريعة الغراء دقائق هذه الأحكام ، وصرح القرآن الكريم بأحكام الطفل الذي لم يظهروا على عورات النساء ، ويقول :﴿ ياأيها الذين آمنوا ، ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ﴾ ثم يقول : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ، فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ (النور ٥٨ - ٥٩) وقال أيضا : ﴿وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾

(النور ٣٢) وذكر اليتيم مفرداً ، ومثنى ، وجمعاً في القرآن الكريم (٢٣) مرة بين المحافظة على ماله ، والإحسان إليه ، وإصلاح حاله ، والقسط معه ، ومعلوم أن اليتيم هو من مات والده ، وهو دون البلوغ .

●●●

عنى الحديث الشريف بأدب الأطفال ، وتوجيههم وإرشادهم وكان في سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله خير دليل على اهتمامه بهم ، ورعايته لهم ، وخير مرشد للصحابة ، وسائر الأمة إلى العناية بهم وإصلاحهم واختيار ما ينفعهم ، وظهر ذلك :

- حين يقدم إليه الأطفال الصغار ، والمواليد ليحنكهم ويسميهم ، ويبرك عليهم ، فيجلسهم في حجره الشريف ويقبلهم ويدعولهم . فعن عبد الرحمن بن عوف : ما كان يولد لأحد مولود إلا أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فدعا له [٢٩].

- في تعامله مع الصبيان والناشئة حين يعطيهم حقوقهم ، ويحترم ذواتهم ، فيطرح عليهم السلام في الطرقات ، ويجيز القادر على حمل السلاح لحضور الغزوات ، واستأذن غلاما ليقدم في الشرب أشياخا كانوا على يسار الرسول صلى الله عليه وسلم . فأبي الغلام . فحقق الرسول رغبته .

- في توجيه الآباء إلى حسن تربية الأبناء ، والعدل بينهم ، فقد أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشهد على وصية لم يعدل فيها الأب بين أبنائه [٣٠] .

- تضمن الحديث الشريف كثيراً من القصص وضرب الأمثال وقد ألف عن الفن القصص في الحديث أكثر من كتاب ، والأطفال -كما قلنا - يحبون القصص ، ويتعلقون بها ، كقصة الرجل الذي نفرت دابته ، والرجل الذي ضلت دابته في الصحراء ثم وجدها ، والعامل الذي ترك اجرته فاستثمرها له رب العمل .. إلخ .

- في تقديم قصص تقوم على سلوك الناشئة الملتزم ، وتقيدهم بالأخلاق ، وخوفهم من الله كالثلاثة الذين انطبق عليهم الغار ، وأثنى على الشاب الذي نشأ في عبادة ربه ، والشاب الذي ليس له نزوة ، ودعا معشر الشباب إلى النكاح أو الصوم ، ودعا للشاب الذي استأذنه في الزنى ، ومسح على صدره ، وحاوره حتى لم يكن هذا الشاب يلتفت لشيء مما كان يريد ، وغير ذلك .

- خصص ابن حجر القسم الثاني من كتابه الإصابة للأطفال الذين ولدوا في عهد

النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابة من النساء والرجال ، ورتبهم على حروف المعجم[٣١] وبعض الأطفال كان يخالطون الرسول صلى الله عليه وسلم فينصحهم ، ويوجههم ، ومن هؤلاء : عمر بن أبي سلمة ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عباس ، وأسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، والحسن والحسين وغيرهم . روى ابن عباس قال: «كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ياغلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم ان الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإذا اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » .

وعن عبد الله بن عمر (هاجر وعمره عشر سنوات) قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ، وعن عمر بن أبي سلمة قال : كنت غلاماً في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي رسول صلى الله عليه وسلم : ياغلام : سم الله تعالى ، وكل بيمينك، وكل مما يليك »[٣٢].

●●●

وكان في أدب الكبار الكثير مما يصلح للصغار ، وخاصة القصص والأخبار ، وشعر الملاحم والربابة وكان للقبائل قصاصوها ، ورواتها وشعراؤها الرسميون ،وكان الناس يحترمونهم ، ويستمعون إليهم ، في شغف ، والأطفال - لا شك - يختلطون بجمهور السامعين ، ويلتقطون ما يستطيعون فهمه من حكايات ومغامرات ، وأساطير ، وخاصة ما يتعلق بالقبيلة ، وأيامها ، وانتصاراتها ، كما كانت النسوة في البيوت أو الخيام يروين لأطفالهن تلك القصص بأسلوب مبسط سلس ، ويركزن على ما فيها من عظة وعبرة.

ونلاحظ حتى في أيامنا هذه الدورالذي يلعبه « شعراء الربابة » في البادية العربية ، وفي القرى ، والأوساط الشعبية ، فهؤلاء الشعراء يلجأون إلى قصص أو ملاحم مثيرة شائقة يسيرة الفهم مفهومة العبارة ، رنانة القافية والإيقاع ، وكان هؤلاء الشعراء القصاصون أو الملحميون يطربون سامعيهم كباراً وصغاراً ، ويهولون في وصف المعارك ، والبطولات ، وأساليب التحايل والدهاء ، وألوان الحب والشقاء ، والتشبث بقيم الشجاعة

والكرم والفتوة ، على غرار ما نسمعه من هؤلاء الشعراء اليوم عن سيف بن ذي يزن ، وعنترة بن شداد ، والأميرة ذات الهمة ، والزير سالم ،وأبي زيد الهلالي ،وغيرهم ، كان لكل عصر بطولاته ، وقيمة ، واهتماماته ، ولم يكن أطفال العصور العربية في معزل عن هذه الألوان الفريدة من التسلية والفن والعبرة .

وعمرت المساجد منذ العصر الأموي برواة القصص والأخبار ، التي كان يستمع إليها الكبار والصغار على حد سواء ، وقد برز في هذا المجال نخبة من أعلام القصاصين كان على رأسهم الحسن البصري - وخاصة في مجال الوعظ والإرشاد[٣٣].

- ضم التراث العربي والإسلامي الزاخر ، في إنتاجه العلمي والأدبي كثيراً من الأخبار والروايات والقصص والحكايات ، والنوادر والمعارف ، والأمثال والكتب ، التي استمتع بها الأطفال على مر العصور ونقلها إليهم المؤدبون والمعلمون ، وتنادروا بها في مجالسهم ، واستشهدوا بوقائعها في أحاديثهم ، وفيها مواد كثيرة تصلح اليوم أن تصاغ من جديد ، يستوعبها تيار أدب الأطفال في موجته المعاصرة .

ففي البيان والتبيين ، والبخلاء للجاحظ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والأغاني لأبي الفرج ، ومحاضرات الأدباء للراغب ، والأمالي لأبي علي القالي ، وأمالي المرتضى ، وديوان المعاني للعسكري ، والمستطرف للأبشيهي ، ونهاية الأرب للنويري ، وصبح الأعشى للقلقشندي ، ومقامات الحريري ،مواد غنية مما يصلح للإفادة والإمتاع لدى الأطفال ، ويمكن أن يستعين به الكتاب المعاصرون .

وحين يلحّ عليّ أبنائي في طلب التسلية ، وقد عرضت عليهم جل قصص الأطفال التي أحفظها ومع أنهم لا يملون من التكرار لفرط تعلقهم بالقصص ، فإني غدوت أستعين أحيانا بمورد بعض الأمثال كما أوردها الميداني في مجمع أمثاله ، بعد تهذيبها ، بالإضافة إليها ، والحذف منها .

بل إن قصص « ألف ليلة وليلة » بالرغم مما فيها أحياناً من فحش في القول ، يجب تجاوزه وتمادٍ في الخرافة والسحر يجب الغض عنه ، كانت زاداً لأدب الطفل ، استلهمه الغربيون ، ونقلوا عنه وكتبوا للأطفال روائع من خلاله ، وما تزال منبعاً يمكن أن يستمد منه كتاّبنا ومؤلفونا بعد تنقية مضمونها .

وقد قدم ابن المقفع لنا في كتاب « كليلة ودمنة » قصصا عن عالم الحيوان والطير ،

وبث فيها كثيراً من الأفكار ، والأهداف والقيم والأخلاق " ويخطيء من يظن أن هذا الكتاب كان قاصراً على الكبار وحدهم ، فقد كان هناك من يبسط هذه القصص ، ويعيد صياغتها ، دون تعقيد وغموض ، ويقدم للأطفال منها ، ما يسد النقص في أدبهم ، وثقافتهم ، وقد فعل ذلك الغربيون بعد قرون ، حينما ترجم إليهم هذا الأثر الفذ ، كما فعل « لامرتين » الفرنسي ،ونسج على هذا المنوال أحمد شوقي ، وكامل كيلاني ، ومحمد سعيد العريان وغيرهم[٣٤] .

●●●

هذا التراث الضخم ، المتعدد المناحي ، الزاخر الإنتاج ، المتنوع الاتجاهات ، قد أدى دوره في تاريخ الأمة ، وبناء الأجيال ، بتربية الأطفال تربية قوية على المستوى الفروي والجماعي ،وواكب مسيرة الأمة في تصميمها الداخلي ، وفي مواجهتها الأعداء .

وعلى الرغم من قيمته التاريخية ، ونفاسته الفكرية ، وتنوعه . فإنه في ضوء المفاهيم العصرية - ما خلا مصادره السماوية - يظهر فيه ما يأتي :

- صيغ في أكثر من وجه على نظر الكبار ، فهو يتحدث عن الأطفال أكثر مما يتحدث إليهم

- يغلب فيه ما يمكن أن نسميه " ثقافة الأطفال " على " أدب الأطفال " بمعنى أنه تغلب فيه المعرفة والتعبير المباشر على الإمتاع والتأثير والتعبير المتأنق . فأدب الأطفال : هو ذلك التعبير الجميل الذي يلائم الأطفال ، ويراعي خصائصهم .

- على الرغم من تنوع قوالبه الفنية فإن التقدم العلمي والتكنولوجي في عصرنا قد فرض قوالب وأنماطا جديدة لقيت الرضى والقبول .

ولا بد لكتابنا المعاصرين إذا أرادوا الإفادة من هذا التراث الزاخر - مع ما يبدعونه في مجالات أخرى - من تطويع هذه العقبات ، واتباع تقنيات عصرية ، وإضفاء لمسات فنية ، تضخ الدماء في عروق هذا التراث ، وتبث الحياة في أوصاله ، وتلبسه ثياباً جديدة هي ثياب هذه العصر ولغته ، بعد أن بدا في زي قديم ، ولغة مهجورة .

لقد بدأ أدب الأطفال في الغرب خطواته المتطورة ، منذ القرن السابع عشر الميلادي ، متتلمذاً على التراث الإسلامي والعربي ، ولكنهم استطاعوا أن يضعوا له آليات فنية متقنة حتى أصبح فنا مستقلاً بذاته ، له أصوله وقواعده وخصائصه ، تراعى فيه مراحل

العمر ، فلكل مرحلة أدب ، ويراعى فيه قاموس الأطفال ، فلكل مرحلة لغة ، ولكل مرحلة ما يناسبها من الموضوعات والأفكار ، يتصدى للكتابة في هذا الأدب كبار الكتاب والأدباء ، وقد استفادوا من نتائج وبحوث العلوم العصرية في التربية ، وعلم النفس ، والاجتماع ، والنقد ، والمدارس الأدبية ، واستفادوا كذلك من التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل الذي شهده هذا العصر في مختلف المجالات . وتنافست دور النشر - كماً ونوعاً - في هذا الهدف ، وتخصصت بعض الصحف والمجلات والمؤسسات في أدب الأطفال ، حتى بلغت دور النشر التي تنشر للأطفال في أمريكا أكثر من ثمانية آلاف (٨٠٠٠) دار ، وتفننت في العرض حتى إن بعض دور النشر تعلم الطفل القراءة عن طريق قطع الحلوى .

وتنوعت لديهم القوالب الفنية : من تمثيلية إذاعية ، إلى تمثيلية تلفزيونية ، إلى تمثيلية مسرحية ، إلى أشرطة الكاسيت والفيديو ، إلى المسرح والسينما ، إلى القصة المقروءة ، والقراءة المصورة ، والقراءة الحرة ، إلى الرسم بالألوان ، إلى الشعر والنشيد ، إلى أفلام الكرتون ، ومجلات الأطفال ، إلى مسرح العرائس ، إلى قنوات إذاعية ، وتلفازية خاصة بالأطفال ... ومن خلال ذلك تقدم الأفكار ، والقيم والاتجاهات ، وتصاغ شخصيات الأطفال ، ومناحي السلوك لديهم نحو حب الفضيلة ، والوطن ، والقيم ، والمجتمع .. بتدرج وكثافة ملائمة ، وخطة مرسومة .

وهناك - اليوم - توجه عالمي يظهر في مؤسسات الأمم المتحدة ، الدولية والإقليمية، وإجماع دولي من أجل العناية بأدب الأطفال ، توجيههم ، وتقديم ما يغذيهم فكرياً وثقافياً ، وإعدادهم للمستقبل ، حتى أصبح هذا الأدب ميداناً رحباً ، وارف الظلال ، ثابت الدعائم ، راسخ الأصول .

غيرأن هذا الفن لدينا ما يزال يتعثر بين دور النشر التي تبحث عن الكسب المادي السريع ، وبين الطفل الذي لم نستطع أن نكون عنده اتجاهاً للقراءة باليد أو العين أو الأذن أواللسان ، وتتشعب الطرق بالمؤلفين بين تبسيط العبارة وتعقيد اللغة ، وبين عمق المضمون وسطحية الفكرة . ولعل في إدخال " أدب الأطفال " مادة مقررة في كليات الآداب ، وكليات المعلمين ما يفتح الباب لأدب ناضج يحقق ما نصبو إليه .

الهوامش

(١) د. نجيب الكيلاني : أدب الأطفال في ضوء الإسلام ص ١٥
(٢) السابق ص ٤١
(٣) د. شوقي ضيف : الشعر وطوابعه الشعبية ص ١٧ - ١٨
(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٦٠ - ٦٣
(٥) ابن حبيب : المحبر ص ٣١١ - ٣١٥
(٦) ابن هشام : السيرة النبوية ٤٩٦/٢
(٧) ابن رشيق : العمدة ١ / ٦٥
(٨) ابن حجر : الإصابة ٤ / ٥٠٢
(٩) ابن هشام : السابق ٣ / ٦٧-٦٨ ، ٩٩
(١٠) الزوزني : المعلقات السبع ص ٣٢ ، ٣٣ ، ١٢٦ ، ١٣٤
(١١) ابن القيم : زاد المعاد ٥٥١/٣
(١٢) ابن هشام : السابق ١٦٧/١
(١٣) بلاشير : أبو الطيب المتنبي ص ٤٥
(١٤) ابن قتيبة : عيون الأخبار ١٦٧/٢
(١٥) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٩٦
(١٦) السجستاني : المعمرون والوصايا ص ١٣٧ .
(١٧) المسعودي : مروج الذهب ٢٧٦/٢ - ٢٧٨
(١٨) ابن قتيبة : السابق ٢١/١
(١٩) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٦
(٢٠) أبو حاتم السجستاني : المعمرون والوصايا ص ٦٠
(٢١) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ١٦/ ٣٤٩
(٢٢) الخفجي (مجلة) صفر ١٤١٧ص٢٩
(٢٣) ابن عبد ربه : العقد ٨٣/٦ ، والميداني : مجمع الأمثال ١٤٣/٢
(٢٤) الخفجي : كالسابق
(٢٥) ابن عبد ربه : السابق ١٥٤/٣ وما بعدها
(٢٦) د. عبد الله الحميد : أدب الوعظ في النثر (رسالة دكتوراه) مواضع متفرقة / مخطوطة .
(٢٧) المفضل الضبي : المفضليات ص ١٤٥
(٢٨) أبو الفرج : الأغاني٣ / ٩٥ - ٩٧
(٢٩) ابن حجر : الإصابة ٥/١
(٣٠) الإمام النووي : رياض الصالحين ص ٦٦٨
(٣١) ابن حجر : كالسابق
(٣٢) الإمام النووي : السابق ص ٢٢ ، ١٦
(٣٣) د. نجيب الكيلاني : أدب الاطفال : ص ٢٢ .
(٣٤) السابق ص ١٦ - ١٧

أدب الطفل وأهميته في هذا العصر

صلاح عبد الحميد الأزهري

رجل الغد مهندساً كان أم طبيبا أم عالما أم ضابطا هو بالطبع طفل اليوم الذي يجب علينا كمجتمع أن نعتني به ونعده لغده المشرق الذي هو غدنا نحن أيضا كجيل يسلم راياته لجيل جديد يثق فيه لأنه قد أعده لذلك .

وقد أدركت الأمم المتقدمة قيمة العناية بالطفولة وتوفير جميع الإمكانات اللازمة لتربية أطفالها فقدمت لهم كل ما يحتاجونه ماديا ومعنويا وحشدت لذلك جهد الباحثين التربويين والاجتماعيين والنفسيين والإعلاميين والأدباء والأطباء حتى يكون جيل الغد أكثر إشراقا وقوة وتفتحا وتطلعا ..

وقضية اليوم هي (أدب الطفل وأهميته في هذا العصر)

وهي قضية مهمة للغاية ، ذلك أن طفل اليوم قد سلم مقدما أن التكنولوجيا التي حوله كلها من حقه وهي بين يديه يلمسها في مدرسته ويراها على الشاشة الصغيرة للتلفاز والكمبيوتر ويقتنع بها على أنها مسلمات العصر الذي يعيشه ، لكن حاجة الطفل لإثارة اهتمامه وثراء خياله واكتشاف مواهبه الإبداعية إنما يقع على عاتق الأدب الذي نقدمه له وهذا ما يجب علينا الاهتمام به لأنه من السهل علينا إشباع معدة الطفل وإشباع عقله ، لكن إشباع روحه ونفسه وإثارة خياله وتحفيز إبداعه يحتاج إلى أساليب مختلفة لا بد وأن تعتمد على الخيال والإثارة والتشويق والترغيب والجاذبية ... وتلك هي مهمة الأدب ..

وإذا كان من السهل على الأدباء أن يوجهوا إنتاجهم الأدبي إلى البالغين والناضجين ولا يجدون حرجا فيما يكتبون ويدعون نقده للنقاد بعد نشره فإنهم يترددون كثيرا عندما يكتبون للأطفال ذلك أنهم لا بد وأن يراجعوا أنفسهم عدة مرات قبل أن يطبع إنتاجهم وينشر ، فالأدب الذي يثير الكبار ويشوقهم ويشدهم يختلف تماما عما يثير خيال الطفل وكوامنه وانفعالاته ويحفز دواخل نفسه .

ومن زاوية أخرى قد يرفض الكبار أو يستنكرون أو يوافقون وجهة نظر الأديب بما لديهم من خبرات مختزنة ، بعكس الطفل الذي قد يسلم بما يقرأ ويراه كمسلمات ويكون لها الأثر السلبي بل السيء على توجيهه وتنشئته وتربيته وتكوينه النفسي والروحي والمعنوي ،

من هنا ندرك جيدا أن أدب الطفل يجب أن تكون له مقومات خاصة وقواعد مدروسة وضوابط محكمة.

كما أن هناك صعوبة أخرى يجب أن تؤخذ في الحسبان عند كتابة أدب موجه إلى طفل اليوم ، وهي أن كل ما يراه حوله من تكنولوجيا متحققة يلمسها بيديه ويستخدمها ويتجاوب معها بكل حواسه إنما كانت لطفل جيل سابق مجرد خيالات وأحلام .. فكيف إذن نثير خيال هذا الطفل ونشد انتباهه ونحفزه ؟ ! !

كما أننا يجب أن نأخذ في الحسبان أيضا أن طفل اليوم لا يمكن أن تستهويه قصص ألف ليلة وليلة ، أو الشاطر حسن ، أو علاء الدين والمصباح السحري ، أو علي بابا والأربعون حرامي ، أو قصص طائر الرخ وأمنا الغولة أو حتى سندريلا وذات الرداء الأحمر!! وذلك أن الخرافات والخوارق والمعجزات لم يعد لها مكان على أرض الواقع .

ماذا إذن يمكن أن نقدمه كمادة لأدب الطفل المعاصر ؟!

تشير الدراسات والإحصائيات إلى أن أدب الخيال العلمي قد أصبح في مقدمة ما يقدم لطفل اليوم من أجناس أدبية قصة كانت أم رواية أم مسرحية وأن الطفل الذي يلمس خيال الأمس وأحلامه بيديه ويراه بعينيه لا يثيره إلا ما يفوقه تطورا وغرابة وتعقيدا كي يرتفع به من أرض الواقع ويجنح به إلى عالم الخيال والدهشة والإثارة ..

ولنا الآن أن نتسائل : ونحن كمسلمين أليس لديننا الإسلامي الحنيف ما يقدمه في قضية أدب الطفل المعاصر ؟!

إن الدين الإسلامي الذي جاء خاتم الأديان والرسالات دين لا ينضب معينه ويجد فيه المسلم بغيته إلى يوم القيامة ، فالأديب المسلم الذي يكتب أدبا لطفل يجد في القرآن الكريم والحديث الشريف مادة علمية عالية المستوى يمكن أن تكون مادة خصبة ثرية لكتابة ما يقدم للطفل من أدب يثير كوامنه ويشده . وينجذب إليه وفي نفس الوقت يرسخ في نفسه وروحه أركان دينه وعقيدته ... كما أن ما في القرآن الكريم من قصص المرسلين والأنبياء الصالحين والأمم السابقة ما يمكن أن يكون أيضا مادة غزيرة لما يقدم من أدب للطفل المعاصر ، تنقله من الواقع المادي المحسوس إلى الشفافية الروحية ، وتقفه على حقيقة دينه وترسخ عقيدته ويتعرف من خلالها على تعاليم الإسلام وتكون عواطفه السليمة ويتبصر مواطن الصواب والخطأ ويميز بين طريقي الخير والشر .

كما أننا لا بد وأن نتمسك بتاريخ جهاد المسلمين الفاتحين والمدافعين عن حوزة الدين وما فيها من تضحيات وبطولات لا يمكن نسيانها أو تجاهلها وللأديب تقديمها للطفل في أجناس وصور أدبية تثير لديه روح الفداء والبطولة والتضحية والرجولة والحماس .

ولا بد لنا أن نقرر هنا أن الأعمال الأدبية التي تقدم لطفل اليوم لا بد وأن تقدم له في صورة عصرية تستهويه وتشد انتباهه وتكون في متناول يديه في كتاب مبسط جذاب أو فيلم قصير على الشاشة الصغيرة أو أي جنس أدبي في إخراج يوائم روح العصر ويسايره .

أما ما يقدم لطفل اليوم في مراحل نموه المختلفة فإن علماء النفس يقسمون الطفولة إلى مراحل للنمو منذ الولادة وحتى المراهقة ، ولا بد لنا من الاستفادة من هذه المراحل فيما ينتج للطفل من أدب ، فما يقدم للطفل في الرابعة والخامسة والسادسة من عمره لا يقدم له في المرحلة من السابعة حتى العاشرة وبالتالي ما يقدم له بعد العاشرة وحتى الثانية عشرة أي قبل مرحلة المراهقة .

فلكل مرحلة من مراحل نمو الطفل أدبها الذي يستهويه ويحفزه ويؤثر فيه ويثير اهتماماته وكوامنه ..

بل إنه يمكن لنا القول بأن تطور النموالعقلي للطفل مع معطيات عصرنا هذا يمكن أن تقسم إلى مراحل سنوية متتالية وليست بعدة سنين ، معنى هذا أن ما يقدم من أدب لطفل الخامسة يختلف عما يقدم لطفل السادسة وكذلك الحال بالنسبة لطفل السابعة ثم الثامنة ... وهكذا كلما ارتقى الطفل في النمو العقلي وتحصيله العلمي احتاج إلى أدب مختلف يساير هذا الارتقاء الفكري .

أما بالنسبة لكاتب الأدب الموجه للطفل الصغير فيجب أن يقف على معطيات العصر التكنولوجية والاكتشافات العلمية الحديثة ، ويكون دارساً لكل مراحل النمو العقلي والفكري والنفسي عند الطفل طبقا للمنهج النفسي الحديث ، كما يجب أن يكون متمكنا من أدواته اللغوية والفنية ليختار منها ما يخاطب به كل مرحلة من مراحل نمو الطفل ويكون مطلعا على كل ما يقدم له في كل مرحلة من مناهج تعليمه في مدرسته بالإضافة إلى دراسته للتاريخ والاجتماع ومتابعته للحركة العلمية العالمية ، فإذا كان الأدب المقدم للطفل مثيرا لخياله ومحفزا لكوامنه فإنه يجب في الوقت نفسه ألا يتعارض مع الحقائق العلمية التي اكتسبها الطفل إلا إذا فاقتها وتقدمت عليها .

كما أن كاتب أدب الطفل يجب أن يكون عالما بكل تعاليم الدين الإسلامي والشريعة السمحة مترسخة في نفسه وفكره وروحه عقيدة التوحيد ألوهية كانت أم عبودية ، حتى يستطيع أن يقدم للطفل ما يرسخ عقيدته ويقنعه بتعاليم دينه وأركانه وعباداته ويزكي نفسه ويطهر روحه ويسمو بها عن النقائص والدنايا ، مزاوجا هذا كله ومسايرا لثورة المعلومات والتكنولوجيا من حوله في تناغم فعال يشبع روحه وعقله ويؤهله كي يكون عضوا فعالا في المجتمع والوطن والإنسانية جمعاء .

مراجع للبحث والاسترشاد

١- بياجيه ، جان - اللغة والفكر عند الطفل - ترجمة أحمد عزت راجح - مكتبة النهضة العربية - القاهرة ١٩٥٤م.

٢- الحديدي ، علي - في أدب الأطفال - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٨٦م

٣- حسن ، شحاته - أدب الطفل العربي ، دراسات وبحوث - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة ١٩٩١م

٤- حلمي ، مصطفى كمال - دراسات في أدب الطفولة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٧م.

٥- دونيز ، اسكاربيك - أدب الطفولة والشباب - ترجمة نجيب غزاوي - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٨٩م.

٦- الروسان ، فاروق - سيكولوجية الأطفال غير العاديين - الجامعة الأردنية - عمان ١٩٨٩م

٧- زلط ، أحمد - أدب الطفولة ، أصوله ومفاهيمه ورواده - الشركة العربية للنشر - القاهرة ١٩٩٠م.

أدب الطفل وأهميته في هذا العصر

سعيد بن أحمد الشهراني

الطفل : نبع الحياة ومعينها الذي لا ينضب ، والأمل المرتجى ، والغد المشرق الباسم والخليفة المنتظر لستلّم الأمانة ، له حقوق وعليه واجبات فإن أعطي ماله وفى بما عليه .

وأدب الطفل : غذاؤه في حاضره وعدته وعتاده فى غده يحتاج إليه أشد من حاجته للماء والغذاء والدواء .

وعندما يكون الأدب راقيا ، فإنه ارتقى به أعلى الرتب ، وتجمل به بين الأقران ، ونال به أغلى المطالب وأسنى المآرب ، فأدب الطفل قديم قدم الإنسانية باق ببقائها ينمو كأي كائن حي ويتأثر بالعوامل المحيطة به .

وإذا كان صفوة الخلق هم الرسل والأنبياء وأفضلهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فكان كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (خلقه القرآن) . فلنا فيه الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة .

نعم ، أدب الطفل موغل في أعماق الزمن له سمات واضحة ومعالم بارزة يأتي في مقدمتها دور كل من البيت والمجتمع والمدرسة . فالبيت يحتل مكان الصدارة في أدب الطفل فيه يستهل إلى عالم النور وفيه تبدأ خطواته ومن مشاربه ينهل علومه ومعارفه الأولى لذا كان لزاما على الأب أن يقف مع نفسه وقفة متأنية قبل امتلاك حرثه وأن يدرك ضخامة مسؤوليته فهو مالك الأرض وباذر الزرع يبدأ أدب الطفل بحسن اختيار أمه لأنها العش الذي يبدأ العيش فيه والمهد الذي يجمع الخلق ويتكون في أحشائه ويكتمل النمو بباطنه من دمها يقتات وفي حضنها تسهر لينام وتشقى ليسعد وتمرض ليصح ويقوى فإذا جمعت صفات الأمومة أنجبت عظماء الأجيال وبناة الأمجاد لأنها كما قيل :

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق

وجهلها يثمرما قال الشاعر :

وإذا النساء نشأن في أمية ... رضع الرجال جهالة وخمولا

فحسن اختيار الأب لدين وأمانة وصلاح وأدب زوجته حسن اختيار خليفته وقرة عينه وفلذة كبده .

والأب لا يقل شأنا عن غيره في ميدان تربية الطفل فهو الظل الوارف واليد الحانية والعين الساهرة ينال الطعام من عرق جبينه وينهل التربية من أدبه وسلوكياته إليه يركن في صباه وعلى أثره يقفو في خطاه وفي سيره يتزود من معين تربية أبيه لذا كان لزاما على ميدان التربية الأول (الأبوين) بذل الجهد الملائم لهذه المرحلة من عمر الطفل .

تأتي بعد ذلك بقية المراحل العمرية وما يصاحبها من ألوان التربية الاجتماعية والتعليمية الطبعية والكسبية وإذا كان الطفل يولد على الفطرة التي فطر الله الناس عليها فإن دور المحيط الذي يعيش فيه مهم ومؤثر .

أما نظرة الإسلام للطفل فكانت قمة في عالم التربية لصفاء نبعها وسمو هدفها وعمق وشمولية مبادئها أحاطه بهالة من الفيض الرباني والرحمة التي تجعل منه فردا إسلامياً وكيف لا يكون ذلك ومصدر تربيته القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

إن تربية الطفل وتهذيب نفسه ليس بالسهولة التي يتصورها البسطاء لأن فكره إناءخال لا بد من ملئه ، وقلبه صفحة بيضاء لابد من كتابتها فإن ملأها بخير أثمر الصلاح وإن كان بغير ذلك ، كان كما قيل كل إناء بما فيه ينضح .

يكتسب الطفل المعالم والقيم والمثل والصدق والكذب والاستقامة والانحراف من بيئته ، فالأبوان والأقارب والأصدقاء والمسجد والمدرسة ... إلخ عوامل مؤثرة في تربية الطفل ، وعن طريقهم تتحدد سلوكياته وتتشكل شخصيته .

لابد من التميز العقلي والعاطفي والاتزان والاستقامة فيمن يتولى تربية الطفل .

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يشكو عقوق ابنه فقال الابن : ياأمير المؤمنين، أليس للولد حقوق على أبيه ؟، قال : بلى قال : فما هي ياأمير المؤمنين ؟ قال : أن ينتقي أمه ويحسن اسمه ويعلمه الكتاب (القرآن) فقال الابن : ياأمير المؤمنين إن أبي لم يفعل شيئاً من ذلك ، أما أمي فهي زنجية كانت لمجوسي ، وقد سماني جعلاً (جعرانا) ولم يعلمني من الكتاب حرفاً واحدا .

فالتفت أمير المؤمنين إلى الرجل وقال له : أجئت الي تشكو عقوق ابنك وقد عققته قبل أن يعقك وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك .

وإذا كان قلب الطفل جوهرة غالية وخالية من كل نقش فإنه قابل لكل نقش كما قيل:

وينشأ ناشىء الفتيان فينا على ما كان عوده أبوه

وإذا كان الإنسان يصون ابنه ويحافظ عليه من نار الدنيا فتربيته التربية الإيمانية حفظ له من الغش في الحياة الدنيا ونجاة له من نار الآخرة .

إن الإفراط في تعويد الطفل على النعم في الصغر والزينة وأسباب الترهل يحمله على إضاعة عمره إذا كبر في طلبها ، انظر لأدب المصطفى صلى الله عليه وسلم لطفل معه على مائدته كانت يده تطيش في الصحفة (ياغلام : سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك) فإن ظهر على الطفل خلق جميل أكرم وإن كان غيره أدب ، يقول صلى الله عليه وسلم (حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتاب والسباحة وألا يرزقه إلا طيبا) ، وإذا كان لتربية روح الطفل الدور الكبير والفاعل في إعداده فإن للجسم حقه حتى ينشأ الطفل قويا وقادرا على تحمل المسؤوليات ومواجهة ما يقابل في حياته وللرزق الحلال والطيب الذي يطعمه الطفل مكان الصدارة في عالم التربية لأن كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به.

فقد كان السلف الصالح من الزوجات والأولاد يوصون آباءهم عند الخروج لطلب الرزق بقولهم اتق الله فينا ولا تعد علينا إلا بالحلال فإننا نصبر على الجوع ولا نصبر على عذاب النار ، وللعبادة وخاصة الصلاة في قلب الطفل أثر رائد ومشهود ولذا حرص صلى الله عليه وسلم على أن تكون أول عمل يكلف به الطفل (مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع) .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن .

وعلى الآباء والأمهات المربين التحلي بمكارم الأخلاق أمام خالقهم أولا ثم أمام ابنائهم وما أروع وأجمل وأكمل وصية لقمان لابنه ففيها عناصر التربية وأهدافها ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم

فـأنبئكم بما كنتم تعـملون يابني إنهـا إن تك مـثقـال حبـة من خـردل فـتكن في صخرة أو في السمـوات أو فـي الأرض يأت بهـا الله إن الله لطيـف خبيـر يابني أقم الصـلاة وأمر بالمعـروف وانه عن المنكر واصبر علـى مـا أصـابك إن ذلك من عزم الأمـور ولاتصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مـختـال فـخـور ، واقصـد في مـشـيك واغـضـض من صـوتك إن أنكر الأصـوات لصوت الحمير﴾ ووصية المصطفى صلى الله عليه وسلم لابن عباس (ياغلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ... إلى قوله رفعت الأقلام وجفت الصحف)

فما لم يصنع اليوم ويحكم صنعه غدا يعقم ثم يهرم

وصلي الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .



واحة الشعر

بدر الجديدة

د . أبو فراس النطافي

أيُّ فـجـر أطلّ عـبـر البـوادي | مـشـرقـاً بالأفـراح والأمـجـاد
سـاعـةُ النصـر من جـديدٍ أطلت | يـوم بدر بـهـيّـة المـيـلاد
فـاللظى صـيّـر الجبـال كـثـيـبـاً | تاركـا صلدها كـذرّ الرمـاد
تتـهـاوى قـلاعـهـا في جنون | بـرؤوس الفـرسـان والأجنـاد
تتـخطى اللهـيبَ وهى لهـيبٌ | يتـشظى على أديم الـطّراد
والحـديد الأصم يزفـر نـاراً | في خـضم الزئيـر والارعـاد
طائراتٌ هوجـاء في الجـو تعلو | ثمَّ تهـوي صـواعـقـاً في الوادي
تقـذف الرعبَ والدمـار وفـيـهـا | يكمن الموت في ركـاب العـادي
وسـفـينٌ تجـرى وراء سـفـين | في أعـالى البـحـار كـالأطواد
لهبٌ في السـمـاء والبـرِّ والبـحـرِ | وبَين الضـلوع والأكـبـاد
والمنـايـا مـواثـل فـي هلـوعٍ | تتـمطى على رؤوس العـبـاد
فـاركـبـوا البـحـر والهـواء غـضـاباً | ياحـمـاة الأوطان من كلِّ عـادي
حـرروا الأرض بالدمـاء وذودوا | عـن ثـراها ، وقـاتـلوا بعـناد
طهـروا كلَّ بقـعـةٍ في حـمـانا | من دم الحـاقـدينَ والأوغـاد
نـحن أقـوى من العلوج وأقـوى | من سـلاح الغـازين والإمـداد
قـوة الدين والإرادةُ فـيـنا | والأضـاحي شـريعـة الأجـداد
فـسل الرومَ والتـتـار وسـائل | زَمـر الشـر عن بني الأمـجـاد
نـحن من أنقـذ الشـعـوب وأحـيـا | أمم الأرض بالـهـدى والرشـاد
نـحن من أعـتق الرقـاب من الذلِّ | وأعطى الحـقـوق للأفـراد
صـفَـحـاتٌ من السنى سطّرتهـا | في سـجـل الخلود بيضُ الأيادي

هكذا المسلمون والعربُ كانوا من قديم الأزمان والآبادِ

خلقاً كالنسيم يسمو عن الحقدِ وإقداما كالسيوف الحدادِ

يؤخذ الحقُ بالدماء وتعلو رايةُ النصر بالحجى والفؤادِ

شيعي الحلم أمتي واستفيقي بزغ الفجرُ فوق هام النجادِ

وارقبى طلعة النهار بهياً حافلا بالأمجاد والأعيادِ

عاشق الأرض

حامد الصافي

قــــالت مللتك لم أعـــــد أهواكــــــا

وكــــــرهت حــــبـــــاً زائفـــــا أفّـــــاكــــــا

وســــئـــــمت منك ومن أحـــــاديث الهـــوي

حلق بعـــــيـــــداً في ســــمـــــــاء ذراكـــــا

أنا لم أعـــد تلك التى أحـــبـبــتــهــــا

وعـــشـــقــتــهــــا ومنجـــتــهـــا نجـــواكــــا

أنا لم أعـــد تلك التى غنيــــتـــــهــــا

لحـنـــاً إذا رددتـــه أبـــكـــاكـــــــــــــا

أنا لم أعـــد تلك التى روضــــتــــهـــا

تصــــغي إليك وتســــتـــــمع شكواكـــــا

أنـا يـاخــــــــدين الأمـس كـلـمـي راعـفٌ

تـالله مـــــا طعن الـفــــؤاد ســــواكــــــا

الورد حين تفـــتــــــقت أكـــمـــــامــــه

وســــقى الندى أوجـــــانه ووعــــاكـــــا

ذبلتــــــه وبصـــــقت في أنفـــــاســــــه

أثـكلتـــــه لله مــــــا أقـــــســـــاكـــــا

الحـب لما ظـلـلـت أفــــــيـــــــاؤه

قلبى اللهــــوف وبات من أســـــراكـــــا

والحـب لما اســــتــــــمطرت أنـواؤه

وروى فــــؤادي حـــــزنه ورواكــــــا

وبدت بصحراء المحبة زهرة

نادت بفوح عبيرها بشراكا

واريت حبى في نهود رمالها

وزرعت في درب الهوى أشواكا

كنت الحبيب وكنت من أحببته

حتى استقر بمقلتيّ قذاكا

حطمت أوزان القصيدة بيننا

ونثرت نظما طاكا أشجاكا

وقتلت في جوف الحمام هديله

لما استفاق مغرداً بلقاكا

مزق حروف قصيدة أهديتها

يوما إلي مزجتها بصفاكا

عهدي برواد القصائد أمهم

أهل الوفا ودُعاته إلاّكا

عفواً فتاة قصيدتى لاتكثري

لوماً عليَّ فما عشقت ملاكا

أنا ما عشقت كواعباً لعب الهوى

بفؤادهن ولا جننت كذاكا

أنا ما سكبت لذات قرطٍ دمعةً

أنا ما شكوت لشادنٍ رحماكا

أنا عاشق الأرض الكريم ترابها

فعساك تدرك ما عنيت عساكا

قلبى تلعق في ثراها والِهاً

أغرقت فيه مجادفاً وشباكا

وطـنـــي .. إذا نــادى الــورى أوطــانــهــم

يســـمـــو إلى الجـــوزا صـــدى ذكـــراكـــا

وطنى .. إذا ذكـــر الوفـــاء فـــرمـــزه

أنت الذى دان الـوفـــا لـو فـــاكـــا

الـلـه خـــصَّك بـالـرســـالـة إذ بـدا

نور الســـمـــاء مـــقـــدسـا لثـــراكـــا

وتـعـطـرت أرجـــاء مـكـة وانـبـــرى

من طـيـــبـــة الإيمان فـــوح شـــذاكـــا

وطني .. حــبــاك الله فــهــداً خــادمــاً

للدين حـــصـناً من شـــرور عـــداكـــا

الأمـــن والإيمـــانُ حـــل ربـــوعـــنـــا

والخــــوف والـكـفــــران بـات هـنـاكـــا

فـــي كـل حــــدب لـلـعـلـوم مـنـارة

شـــيـــدت تحـــقق للمـــدى رؤباكـــا

والجـــامـــعـــات الســـبع هـن شـــوامخ

ســـبـــقت على مـــر الزمـــان رؤاكـــا

وبـكـل فـج لـلـتـــقـــدم مـــعـلم

وعلى بقـــاع الأرض عم ســـخـــاكـــا

وطنى سلمت وخـــاب من هو مـــغـــرض

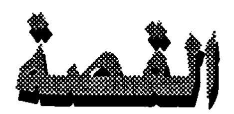
وعـلـت عـلـى كـل الأكـف يـداكـــا

بـينى وبـيـنك عـــهــدُ ودٍّ صـــادق

أنـى إذا نـاديـتـنـي لـفـــداكـــا

ســأظل أسكب في هواك مـــشـــاعـــري

حـــتى تنـاديني النجـــوم لفـــداكـــا


القصة

جدى وأنا

عبد الجواد محمد الحمزاوي

- هل يسرك وأنت رجل مثقف ومتعلم تعليماً عالياً أن يكون جدك شيخاً للخفراء ؟

- ....

- نعم !!؟! .... إذا كنت تعي حقاً ما تقول فإني على استعداد لأن أبادلك جدي بجدك كائنا ما كان ، ومستعد لدفع تعويض مناسب كذلك ..

- ...

- لاتدهش ولا تتعجب ولكني أحذرك مقدماً وأعرفك بأنني لست مستعداً للرجوع في البيع ، وأن العقد سيكون به شرط جزائي قاس للمتراجع .. أظن أن هذا مفهوم ...

- .....

- طبعاً ... طبعاً .. فجدي - شيخ الخفراء - عنده أرض واسعة في بلدتنا البعيدة ، ومن ثم فلابد أن يأتينا منها فى كل الأوقات تقريباً ما تغص به من خيرات ، والبط «المزغط » تخصنا به جدتي فى المواسم وبدون مواسم ، وخروف العيد يأتينا كل عيد ... ولكن هذا لاقيمة له عندي ومستعد لإتمام الصفقة .

- ...

- بالطبع لا ... ففى البداية كنت فخوراً بجدى ، هذا وأنا صغير ... الحق أنني كنت أحس بنفسي شيئاً كبيراً محترما ومختلفاً عن الأولاد ، أترابي ، حينما كنت أذهب لبلدتنا فى إجازة الصيف فقد كنت أشبه عمي المرحوم شبهاً كبيراً .... كان الابن البكر لجدي والذي مات فى حادث أليم ولا داعي لبيان كيف مات فهذا لايهمك في شيء ... وركبت الحمار وحصان جدي الأسود ولكن ، ما علاقة هذا بما نحن فيه ؟ .... أريد أن أنتهي ...

- ....

الحقيقة أن جدى لم يتغير وهذا هو سر المشكلة ... كل شيء تغير ، الناس والأرض والزرع ... كل شيء إلا جدي ... جدي فى الحقيقة كان يحب الناس والناس كانوا يحبونه ويحترمونه ولكنهم فى الآونة الأخيرة أخذوا يناصبونه العداء ... في الفترة الأخيرة كان

جدي لايفتأ يردد أن القوالب نامت والأنصاف قامت ، وأحايين كثيرة كان يلقي على مسامع الجميع أن تُبعاً اليماني أخبر أنه سوف يأتي زمان تصح فيه « الندولة » والأراضي المجهولة ، وكان يجزم بأن زماننا هذا هو ذلك الزمان الذي كان يقصده تُبع اليماني ... ولم يكن يبالى بغضب من يغضب .. للعلم فأنا أحيطك بهذه المعلومات لأنفي عنك الجهالة ولأجعلك عالماً بكل شيء عن جدي حتى اذا ماتمت الصفقة لا تستطيع أن تتعلل بالجهل ... أية خدمات أخرى ؟...

- ....

قلت إنني أشبه عمي ، الابن البكري لجدي ، والذي مات في حادث أليم ... جدي كان يحبنى جداً وأنا صغير وكذلك جدتي .. ولكننى حينما كبرت تغير الأمر ، لا أدري لماذا ولكنني صرت « خرعاً » مثل أبى ..هكذا كان يردد جدي دائماً ... وأبي هذا مدير عام ذو صولة ونفوذ وصولجان واتصالات عامة واسعة ... وجدي نفسه حينما كان يحتاج شيئا من البندر فإن أبى هو الذى يقضيه له في التو واللحظة ، ومع ذلك كان جدي لايتوانى ولايتورع في أن يصمه بأنه « خرع » وأني أشبه ...

- ....

- أعتقد أنه لا علاقة لهذا السؤال بموضوعنا ومع ذلك فلا بأس من الإجابة عليه ... أمي يا سيدى تعمل وكيلة وزارة محترمة ... الكل يشيد بمقدرتها وكفاءتها ... الوزير نفسه يطلبها في منزلنا لتدير شئون الوزارة .. الحق أنني أشفق عليها ، حياتها كلهاجد وعمل من مطلع الشمس إلى ما بعد منتصف الليل ، هذا بخلاف السفر الدائم والمؤتمرات الخارجية .... مثال للمرأة الطموح والمواطنة الصالحة ..

- ....

- عرفني هل تريد إتمام الصفقة أم لا ؟ ... أسئلتك كثيرة ولا أرى لها علاقة بموضوعنا ومن ثم فلن أجيب ، ...

- ....

- حسنٌ ... سأجيب ولكن هذا السؤال الأخير كما اتفقنا ...

كنت عند جدي في بلدتنا البعيدة لأدعوه إلى حفل زفافي ... حقيقة كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بهذا الشعور الذي لا أستطيع وصفه .. أمسكني جدي من كتفي

وصاح فيّ أنني لا أستحق ما سيرويه عليّ ولكنه يرويه لأنني أشبه عمي « رجباً » علني أستفيد منه .. هكذا صاح فيّ ... جلست ساكناً وهو يحكي ... في الحقيقة لم يكن يحكي وإنما كان يمثل مسرحية أمامي ... يقوم بكل الحركات ويقلد كل الأصوات ... المرة الأولى التى أرى فيها شيخ الخفراء بهذه الصورة ...كنت خائفاً .. نعم كنت خائفاً وكنت أعتقد أن جدي قد جُنَّ ...

مثّل جدي كيف أن موظفاً وخرعاً ، مثل أفندية هذه الأيام كان متزوجاً من امرأة لاتطيعه ولا تحترمه باختصار ، قال جدى ، كان هو المرأة وهي الرجل ... لا تستأذنه في خروج أو دخول ولا تسمع لكلامه ولاتلبي طلباته وترفع صوتها عليه ...

قلت : هل لابد أن تستأذن في الخروج والدخول ؟ ... وهل يجب على المرأة أن تسمع لكل كلام زوجها ؟ ... فهى إنسانة مثله ، لها شخصيتها وكيانها ، وقد يكون الحق معها وهو الذي يثيرها بمحاولته أن يسلب منها هذا الحق ؟.."

أبي ، لا أذكر مرة أنه ضربني ، والآن بعد أن صرت موظفاً كبيراً محترماً في الوزارة التى تعمل بها أمي ، يضربنى جدى على وجهى هذا القلم الضخم ..! .. ويقولون إنه مريض وإن الزمن نال منه ..! .. لايزال وجهي كما تراه أحمر ويؤلمني من صفعته ... وظللت ساكتاً ساكناً وهو يمثل .

قال جدى إن شقيق هذا الموظف " الخرع " وكان جزاراً لم يعجبه حال أخيه وكان كلما رآه أعلمه بأن سبب طغيان زوجته أنه لم يذبح " البس " ..

« يذبحُ البس » قلت رغماً عني ...

حقيقة أنني ابتلعت استغرابي بسرعة بسبب خوفي من جدي، ولكنه نظر اليّ ثم قال " نعم لم يذبح « البس » ..

وعلمت أنهم ، أيام زمان ، كانوا يجيعون قطة في ليلة الزفاف ثم يطلقونها لتذهب إلى العروسين وهما يأكلان ...

كان الرجل ، زمان ، هكذا قال لي جدي ، يصرخ في القطة الجائعة " بس ياقطة " لم تكن القطة تذهب ينظر الزوج إلى القطة ويقول بلهجة واثقة " إذا لم تسمعي لكلامي فسأذبحك " ... لم تكن المسكينة الجائعة تسمع الكلام ، فيقوم الزوج ، ليلة زفاف عروسه إليه ... بذبح القطة المسكينة .

كنت أرتجف من الخوف وجدي يمثل كيفية الذبح .. ولكن جدي لم يرحمني واستمر يقول ويحكي ..

اتفق هذا الموظف مع أخيه الجزار على ذبح " البس " لتنتهي مشاكله وتحترمه زوجته، وبالفعل أجاع الجزار قطة ثم أطلقها على أخيه الموظف وهو يتعشى مع زوجته لحماً أعده الأخ الجزار وشواه .. تشجع الموظف ونفذ وصية أخيه وذبح القطة ، ولكن زوجته نظرت إليه وهي تضحك وقالت .... " كان من الأول "

حقيقة ، كنت عازماً حينما يتركني جدي لأذهب ، أن أبلغ أبي بأنه قد جنَّ جنوناً رسمياً ... وكنت سأحاولا إقناعه بأن يعرضه على طبيب نفساني ... فهل هذا كلام ؟ ..! كلام فارغ طبعاً ...يذبح قطة مسكينة ليلة عرسه .. أناس متوحشون ... دراكولا أرق منهم وألطف .. ثم مالي أنا وذبح القطط فليذبحوها ما شاءوا مادامت جمعيات الرفق بالحيوان لم تكن موجودة آنذاك .. ولكن الذي غاظني وحز في نفسي أن جدتي أتت ورأت جدي وهو يمثل ، وحينما فرغ من تمثيله قالت له والدموع تملأ عينيها أنني لن أستفيد من كلامه ، لأنني حمار مثل أبي ...

- ....

- إذا اتفقنا ...

طيف رجل غابر

راوية عبد القادر محمد ناجي

الحمد لله ، اللهم أدم علينا نعمتك واحفظها من الزوال ، كان عشاء طيبا .

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- إلى غرفتي لأنام .

- ألن تتابع برنامجك الأخباري ؟

لوح بيده نافيا ودلف إلى الباب الذي يليه ، دخل غرفته المعتمة قليلا ، أراد أن يضيء المصباح لكنه تراجع واكتفى بالضوء المتسلل من خلال ستائر الغرفة ، استلقى ثم عاد للجلوس على فراشه .

- ماهذا ؟ طيف من هذا ؟

يرى إنساناً متجرداً من ثيابه ماعدا شيئاً يسيراً يستره ، يقول فى نفسه إنه إنسان بدائي فيسمع الطيف يتمتم متبرماً ، ثم يجهر بالقول :

ماذا تقصد بالبدائي ؟

- لاشيء لاعليك مما قلت ، لم لاتعرفني بنفسك ؟

(كيف سمع ماقلت لنفسي) !!

- أنا حي ....

- حي لست ميتا !

- يتجاهل تهكمه ويكمل : ابن يقظان .

- آه ، صاحب ابن الطفيل .

- نعم ، أنا هو .

فأخذ يسأله عن الغزالة التى أرضعته وكيف كان حاله عندما فقدها ، ومن صاحب فكرة دفنها ، فأخذ يحدثه بحزن شديد ثم انتبها على صوت قطع حديثهما اقتحم الغرفة من الخارج ، يشبه الأنين أو الأزيز .

- كأنه أنين ديناصور .

- لا أظن ذلك ياحي .

قالها وهو يبتسم ، فيما كان حى جادا في قوله يرغب في عمل شيء ما .

- هيا بنا نضمد جراحه ونواسه في وحدته .

- لا ، ليس لي رغبة في ذلك ، اذهب أنت إذا شئت .

يقول في نفسه : ها ... إنه صوت احتكاك مفاصل رافعات غير مشحمة .

- هو ذاك أم تريد أن يسلبنا هذا الشرف إحدى جمعيات الرفق بالحيوان الغربية .

- الحيوان ؟ وهل الديناصور حيوان ، كنت أظنه أكبر من ذلك ، تريد أن تسابق تلك الجمعيات فى هذا الشرف ، فماذا تعمل إن حصل هذا الأنين من شعب بأكمله ؟.

- حقا !! ماذا تعملون هذه الأيام ؟

- نذهب إلى أكبر علبة كبريت في العالم ونعرض عليها الأنين .

- ما علبة الكبريت هذه ؟!!

- هيئة الأمم المتأممة ، أقصد المتحدة .

- وهل هي متحدة ؟

- إنها مجرد اسم لا اتحاد أو فعل فيها .

- أو تلجاؤن إليها كثيرا .

- لا ، ولكن كلما طغى الطغاة على الكثرة الكاثرة من ضعفاء سكان المعمورة ذهبنا إليها .

- ماذا عن الديناصور ...

- لقد انقرض .

فإذا بحي برفع حاجبيه مندهشا !

- منذ متى ؟

- ....

في فضاء الغرفة تعالى شخير متقطع .

دراسات نقدية

« حوليات سوق حُبَاشَة »

حمد الجاسر

هذا عنوان كتاب يحوي اثني عشر بحثاً للأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد أبو داهش تحقيقاً أو دراسة سوى واحدٍ منها عن (حُبَاشَة) بقلم الأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه، ويحسن عرض عناوينها : (رحلة الحج من يَلَمْلَم إلى البلد الأمين لعلي بن الحسن العجيلي تحقيق - حُبَاشَة بقلم الأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه - رأي في تحديد بداية نهضة الشعر السعودي المعاصر دراسة - رسالة الضمدي إلى الإمام سعود بن عبدالعزيز تحقيق - موقف أدباء الجزيرة العربية في الحملة الفرنسية دراسة - قصائد يمنية في جريدة أم القرى قبل سنة ١٣٦٥هـ جمع ودراسة - الدرعية في أعين الشعراء جمع ودراسة - رسالة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني إلى عبدالهادي بن بكري العجيلي دراسة - دور مجلة المنهل في حقل الأدب التهامي دراسة - رسالة في النقود لجمال بن محمد المالكي تحقيق - جوانب من حياة العسيريين في القرن الثالث عشر الهجري، دراسة - الضمديات من نتاج أدباء ضمد جمع إسماعيل بن أحمد الضمدي دراسة - من فهارس المخطوطات في مكتبة الدكتور عبدالله أبو داهش) ومنها ما نشر في بعض الصحف كـ « العرب » وغيرها.

ولقد عرف الأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد أبو داهش بشدة تعلقه واهتمامه وعنايته واتجاهه لدراسة الأدب في تهامة، وما يتصل بها بحيث يُعَدُّ من أوسع المهتمين بهذا الجانب اطلاعاً، وأطولهم باعاً في هذا الأدب، وقد أضيفت هذه الأبحاث إلى سوق حباشة أحد أسواق العرب المشهورة في العهد الجاهلي وصدر الإسلام، الواقع على مقربة من مدينة (القنفذة) كما سيأتي توضيح هذا.

ومن تلك الأبحاث من الطرافة وغزارة الفائدة ما يستهوي القارىء المعني بما يرتبط به من موضوعات أضفى عليها قلم عالم محقق جليل، ما بسط الاستفادة منها ووسعها!.

ولي وقفة قصيرة عند الحديث عن (سوق حباشة) ذلك أن حبيبنا الأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه أتى بمعلومات موجزة عن ذلك السوق ، ويبدو من نشر مصور جغرافي لموقعه منسوباً إلى مجلة «العرب» أن الباحث الكريم قد اطلع على بحث منشور في تلك المجلة قبل أكثر من عشرة أعوام (ذي القعدة والحجة ١٤٠٥هـ).

ولن أعتب إليه، إن كان قد اطلع على ذلك البحث، عدم الإشارة إليه، فقد سلك

نهجاً ليس هو الأول من سالكيه، ولكنني سأبدي ملاحظات موجزة عن تحديد موقع ذلك السوق، وعن إعادة رسم المصور الجغرافي الذي بَدَا في الكتاب غير واضح، وفي وقفات قصيرة عند ما ورد في كلام الأستاذ الفقيه، مع ملاحظة أن كل ما نقل من الأقوال عن تحديد السوق قدأوردتها في البحث المشار إليه.

١ ـ أورد الأستاذ الفقيه : من كلام الأزرقي هذا النص : (في ديار الأوصام من بارق إلى صدر قَنَوْنَا وحَلْي في ناحية اليمن).

وفي هذا الكلام خطأ يغير المعنى، وصواب كلام الأزرقي هو : (وهي في ديار الأوصام من بارق من صدر قَنَوْنَا وحَلْي).

٢ ـ قال الأستاذ الفقيه : (قوله في ديار الأوصام من بارق) يزيد من عبء الباحث إذا علم أنه لا يُعْرَفُ في الحاضر أو الماضي اسم لقبيلة أو أرض بهذا الاسم (الأوصام) وإن كنت عددته تحريفاً لاسم (الإواس) القبيلة الأزدية التي حلت هذه السوق في ديارها آنذاك من صدر قَنَوْنَا، وهو الموقع الذي يُعَد أقرب إلى الصواب في أنه يبعد ست ليال عن مكة).

وغريب حقّاً أن يقول الأستاذ حسن : لا يُعْرَفُ في الماضي ولا الحاضر اسم لقبيلة أو أرض بهذا الاسم (الأوصام). أليس من الحسن أن يقال : لا يُعْرَفُ في الزمن الحاضر، أما الماضي فقد عُرِفَتْ قبيلة باسم (الأوصام)، وَجَهْلُ الأستاذ الفقيه ليس من العلم في شيء، وكان الأولى القول : بأنه هو نفسه لا يعرف، أما نفي العلم عن غيره فلا يتفق مع الحقيقة.

٣ ـ متى حلت قبيلة الإواس موقع هذا السوق وما هو المصدر الذي يعول عليه في ذلك؟

إن إطلاق القول هكذا، غريب من محقق فاضل كالأستاذ حسن الفقيه.

لقد أورد علماء النسب وإمامهم في ذلك ابن الكلبي، ذكر قبيلة تدعى (الأوصام) من بارق، فقد جاء في «مختصر كتاب جمهرة النسب» مخطوطة راغب باشا ص ٢٠٩ ما نصه : (ومن بني ثعلبة بن عمرو الأَوْصَامُ وشَبَرُ ولَوْذَانُ والنَّباحُ قَبَائلُ كثيرَةٌ، فمن الأَوْصَام الشَّاعر وَسْنَانُ بن أَبِي عَطَاء، قَتَلَتْهُ الحَجْرُ بَطْنٌ في السَّرَاةِ، ومُنْذر بن عَوْفٍ الشَّاعرُ).

وجاء في كتاب «نسب معد واليمن الكبير» ـ ج٢ ص ٤٦٥ ـ: (وولد ثَعْلَبَةُ بن عَدِي بن حَارِثَة، فولد حَارِثَةُ بن ثَعْلَبَة شَنْواً ولَوْذَانَ والنباح والأَوْصَام قبائل جَمَاعَة).

وثَعْلَبَة بن عَدِي هو أخو بَارِق بن عَدِي، وقد جاء في كتاب «الإنباه على قبائل

الرواة": (وأما بارق : فماء بالسَّراة، فمن نزله أيام سيل العرم كان بارقيّاً، ونزله سعد بن عَدِي بن حَارِثة، وابنا أخيه مالك وشبيب ابنا عمرو بن عَدِي بن حارثة فسموا بارقاً).

٤ ـ وقال الأستاذ حسن عن (الأوصام): (وإن كنت عددته تحريفاً لاسم (الإِواس) القبيلة الأزدية التي حَلَّت هذه السوق في ديارها آنذاك من صدر قَنَوْنَا) إلى أن قال : (وكانت الإِواس صاحبة الموقع على نحو ما فصلت عنه في البحث المطول الذي أعددته عن هذا السوق، وعزمت أن أنشره قريباً إن شاء الله).

لعل مما يفيد الباحث هنا أن يعرف أن الإِواس من القبائل الأزدية التي تقطن السراة، فقد جاء في كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» المنسوب خطأ إلى الأصمعي : (سألت أبا علي الهَجَرِيَّ عمن خرج مع أحمس بن أَنْمَار، فقال: خرج معه بَنُو بَجِيْلَة بن أنمار، وبنو أقبل بن أنمار، فسألته عن أقبل، فقال: منهم شَهْرَان وكَوْدُ ونَاهِسُ والأَوْس وإِواس ـ إلى أن قال ـ هذه القبائل تعرف بخَثْعَم وبَجِيْلَة.

وفي كتاب مغلطاي «الاتصال في مختلف النسبة» : الإِواس ـ بكسر الهمزة ـ أبو أحمد الإِواسي من شَهْرَان من خَثْعَم، قال أبو علي الهجري : أنشدني رجزاً له. وقال الرشاطي : الإِوَاسي، ثم أورد له أبياتاً على قافية التاء. وفي «مختصر الفاسي لكتاب الرُّشَاطِي» : الإِوَاسي في الأزد، ذكر الهمداني قال: الشنفري بن مالك الإواسي في خَثْعَم. وفي «معجم البلدان» رسم (عِيَار): هضبة في ديار الاواس بن الحَجْر ويوم حراق من أيامهم، غزت غامد الإِواس بن الحَجْر، فوجدوا خَمْسِيْنَ رَجُلاً من الإِوَاس في حضارٍ، فأحرقوهم في هضبة يقال لها (عِيَار) فقال زُهَيْر الغَامدي :

نَبْغِي الإِوَاسَ بِأَرْضِهَا وَسَمائِهَا ... حَتَّى انْتَهَيْنَا فِي ذُؤَابَةِ يَكْبُدَا

حَتَّى انْتَصَبْنَا فِي عِيَارَ كَأَنَّنَا ... أظبٌ وقَدْ لَبَدَ الرُّؤُوسَ من النَّدا

مما تقدم يفهم : أنَ الإِوَاس كانوا من خَثْعَم، فدخلوا في قبيلة الحجر كغيرهَم من قبائل خَثْعَم، وبلاد هؤلاء لاتزال معروفة.

٥ ـ لقد كان من الأَوْلى، وقد اختير لهذه الأبحاث إضافتها إلى اسم (سوق حُبَاشَة) أن يحدد الأستاذ الفقيه، وهو من أهل تلك الجهة، موقع ذلك السوق باختصار، إذ لم يَرَ المناسبة داعية إلى نشر بحثه كاملاً.

ومن هنا : فقد حسن إيراد ما جاء في مجلة «العرب» عن تحديد الموقع ـ في الجزأين

الخامس والسادس الصادرين في شهر القعدة والحجة سنة ١٤٠٥هـ - ص (٩٢) - بعد إيراد طائفة من الأخبار، وأقوال المتقدمين عن ذلك السوق : (وقبيلة بارِق التي يقع سوق حُبَاشَة في بلادها لاتزال معروفة مستقرة في مواطنها القديمة التي هي في غور سراة عَنْزٍ والْحَجْر، وهي أزدية قحطانية، صريحة النسب من مازن بن الأزد، وقبيلة بارق أخت قبيلة ألمع التي لاتزال في بلادها القريبة من بلاد بارق، وقد تحدثت عنها في كتاب «في سراة غامد وزهران».

ويحد بلاد هذه القبيلة من جهتي الشرق والشمال بلاد بني شِهر من الحجر من الأزد أيضاً.

وبَارِق بلادهم منتشرة في صدور قَنَوْنا، وما حولها من فروع الأودية.

ووادي قَنَوْنا من أشهر الأودية التي تخترق تهامة حتى تبلغ البحر عند ميناء القنفذَة.

وهذا الوادي لا يلي وادي حَليٍّ - كما يُفْهَم من كلام الأزرقي - بل يفصل بينهما وادي يَبَة - يقع وادي قَنَوْنا على خط العرض : ١٠/١٩° وجنوبه وادي يَبَة على خط عرض : ٠٠/١٩° - ثم وادي حلي : ٤٠/١٨° - على وجه التقريب).

والأودية الثلاثة مشهورة قديماً، ومعروفة الآن.

ويظهر أنَّ موقع السوق من صدر قَنَوْنا هو حيث يتسع حوض الوادي بمجاوزته ما كان يحصر مجراه من الجبال، وامتداده في سهل تهامة المتسع لنزول الكثير من الناس ممن يحضر ذلك السوق السنوي الشهير من مختلف الجهات.

وهناك في الأرض البراح ملتقى للطرق المسلوكة قديماً وحديثاً، حيث تقع قرية تدعى (الأحد) إذ يقام فيها سوق أسبوعي كل يوم أحد، لا أستبعد أن يكون موقع سوق (حُبَاشَة) القديم بقرب هذه القرية، وأنه أُعِيد بعد تخريبه من قبل أمير مكة داود بن علي، والتخريب - إن تَمَّ - يصدق على ما فيه من مَبَانٍ، والملاحظ في الأسواق التي لا تستمر زمناً طويلاً عدم الحاجة إلى المباني، بل الاكتفاء بالبيوت المنصوبة كالخيام ونحوها، مما يَسْهُلُ نقله عند انتهاء زمن السوق الذي لايزيد على أيام.

ثم إنَّ من عادة القبائل أنها تستعيد ما قد تحتاج إليه عندما تَقْوَى على استعادته، ومن المعروف أنَّ سيطرة الدولة العباسية على هذه البلاد بدأتْ في الضعف منذ أول القرن

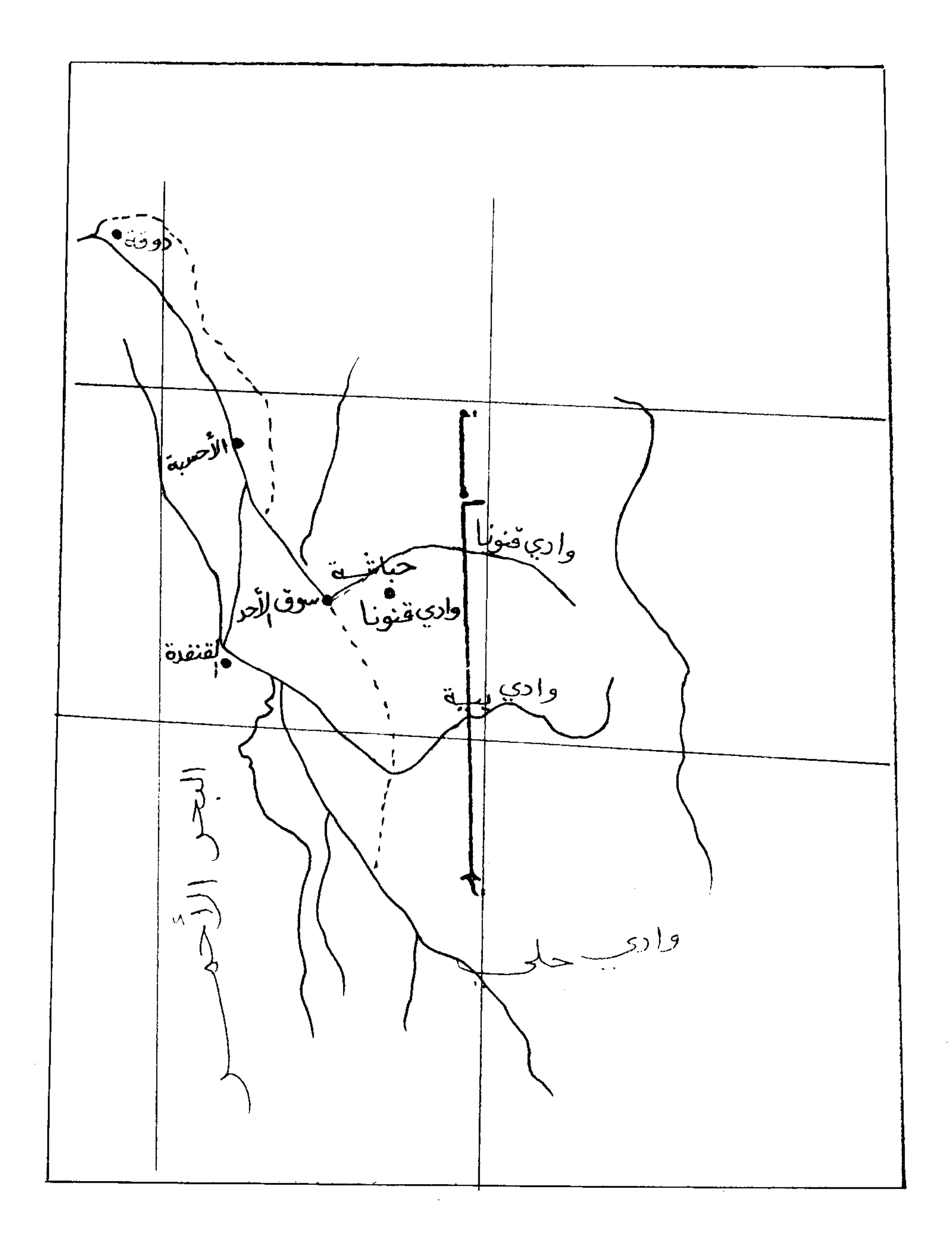
الثالث الهجري، وأنها لم تتمكن من إخضاع جميع قبائل الجزيرة.

ويقع سوق (حُبَاشَة) على ما ظهر لي (بقرب خط الطول : ٤١/١٢َ ْ وخط العرض : ١٩/١٠َ ْ) شرقي بلدة القنفذة بنحو عشرين كيلاً).

وألحق بذلك البحث مصور جغرافي (خريطة).

أراني قد توسعت في الحديث عن تلك الأبحاث القيمة التي كتبها الأستاذ الدكتور عبدالله أبو داهش، فرأيت إيضاح الموضع الذي أضيفت إليه لتتم الفائدة.

والكتاب من منشورات نادي أبها الأدبي سنة ١٤١٦هـ (١٩٩٦م) في (٢٩٢) من الصفحات في طباعة حسنة.



مخطط تقريبي لموقع سوق حباشة



استراحة بيادر

في رياض الأدب

إعداد : د . إبراهيم راشد

١ـ كيف نقرع باب الرحمة ؟

كان السلف يستحبّون أن يُسْتَهَلَّ الدعاء بالثناء على الله عز وجل ، ويرون أن ذلك أدعى للإجابة .. ورأى ابن حجر ـ في الحديث التالي ـ «استحباب تقديم الثناء على المسألة عند كل مطلوب اقتداء به صلى الله عليه وسلم».

روى البخاري ـ ومسلم وأبو داود ـ بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد ، قال:

«اللهم لك الحمد ، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيِّم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك حق ، وقولك حق، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق.

اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت وإليك حاكمت ؛ فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت ».

٢ـ العلم وتصحيح النية :

روي الذهبي ـ في سير أعلام النبلاء ـ في ترجمة مَعْمَر بن راشد (أحد السلف من العلماء ، توفي سنة ثلاث وخمسين ومائة ، وقال عنه الذهبي : وكان من أوعية العلم ، مع الصدق والتحري ، والورع والجلالة ، وحسن التصنيف) أنه كان يقول :

لقد طلبنا هذا الشأن (يعني : العلم) وما لنا فيه نيَّة ، ثم رزقنا الله النيَّة من بعدُ.
وقال مَعْمَر أيضا:

كان يقال : **إن الرجل يطلب العلمَ لغير الله ، فيأبى عليه العلمُ حتى يكونَ لله.**

وعلق الذهبي بقوله :

نعم ، يطلبه أولا ، والحاملُ له حبُّ العلم ، وحب إزالة الجهل عنه ، وحب الوظائف

ونحو ذلك. ولم يكن علم وجوبَ الإخلاص فيه ، ولا صدقَ النية، فإذا علم حاسب نفسَه ، وخاف من وبال قَصْده ، فتجيئه النية الصالحة كلُّها أو بعضُها ، وقد يتوب من نيته الفاسدة، ويندم. وعلامة ذلك أنه يقصر من الدعاوى وحبِّ المناظرة ، ومن قصد التكثر بعلمه، ويُزري على نفسه . فإن تكثر بعلمه ، أو قال : **أنا أعلم من فلان** ـ فَبُعْداً له».

٣ـ بالدؤوب والملازمة يدرك طالب العلم بغيته :

وكما أن طالب العلم بحاجة إلى الإخلاص وتصحيح النية ، فإنه بحاجة ـ أيضا ـ إلى الدؤوب والملازمة.

ذكر أبو العباس ثعلب في مجالسه ـ ونقله السيوطي في المزهر ـ بسنده عن يحيى بن أبي كثير ، قال : كان يقال : **«لا يُدْرَكُ العلمُ براحة الجسم»**.

قال : وقيل للأصمعي : كيف حفظت ونسي أصحابك ؟ قال : درست وتركوا.

وذكر أيضا عن الفضل بن سعيد بن سلم ، قال:

كان رجل يطلب العلم فلا يقدر عليه ؛ فعزم على تركه ، فمرّ بماء ينحدر من رأس جبل على صخرة قد أثّر فيها ، فقال : الماء على لطافته قد أثّر في صخرةٍ على كثافتها ، والله لأطلبنَّ! فطلب فأدرك.

قال السيوطي: وإلى هذا أشار من قال:

اطلبْ ولا تضجرَ من مَطْلَبٍ ... فآفة الطالب أن يضجرا

أما ترى الماء بتكرارِهِ ... في الصخرة الصمَّاءِ قد أثَّرا

٤ـ يُكتَبُ في مكارم الأخلاق :

نقل الخطيب البغدادي ـ في تاريخ بغداد ـ في ترجمة القاضي أبي بكر موسى بن إسحاق الأنصاري الخطمي (٢١٠ ـ ٢٩٧هـ) بسنده عمَّن روى أنه حضر مجلس هذا القاضي ـ بالري ـ سنة ست وثمانين ومائتين ، قال :

تقدمت امرأة فادعى وليها على زوجها خمسمائة دينار مهراً ، فأنكر ، فقال القاضى لوليها : شهودك ؟ قال : قد أحضرتُهم.

فاستدعى بعضُ الشهود أن ينظر إلى المرأة ليشير إليها في شهادته ، فقالوا للمرأة : قومي ، فقال الزوج : تفعل ماذا ؟ قال الوكيل : ينظرون إلى امرأتك وهي مسفرة لتصحّ

عندهم معرفتها ، فقال الزوج : فإني أُشْهِدُ القاضي أن لها عليَّ هذا المهر الذي تدعيه ، ولا تسفر عن وجهها.

فُردَّت المرأة، وأُخْبِرَتْ بما كان من زوجها، فقالت : فإني أشهد القاضي أن قد وهبت له هذا المهر وأبرأته منه في الدنيا والآخرة ، فقال القاضي :

«يُكْتَبُ هذا في مكارم الأخلاق!»

٥ـ في معنى وصف الغيث بعد اليأس :

أبيات في صفة الجدب والخصب ، قال عنها ابن الأعرابي : إنها من أحسن ما قيل في معناها، وقال عنها الخالديان : «هي من أطبع أشعارهم، وأغربها معنًى ، بل ما نعرف في صفة الجدب والخِصب مثلها» ، والمصادر تعزوها إلى امرأة من بني أسد ، وسماها الخالديان : وسنى بنت عامر الأسدية ـ وهي:

١ ـ ألم ترنا غَبَّنَا ماؤُنا ... زمانًا ، فَظَلْنا نَكُدُّ البِئَارا

٢ ـ فلما جفا الماءُ أوطانَه ... وجفَّ الثِّماد فصارتْ حِرارا

٣ ـ وضَجَّتْ إلى ربِّها في السماء ... رؤوس العِضَاهِ تناجي السِّرارا

٤ ـ وفَتَّحتِ الأرضُ أفواهَها ... عجيجَ الجِمال وردنَ الجِفَارا

٥ ـ لَبِسْنَا لدى عَطَنٍ مَرَّةً ... على اليَأسِ آتابَنَا والخِمارا

٦ ـ وقلنا : أعيروا الندى حقَّه ... وصَبْرَ الحفاظ وموتوا حِرارا

٧ـ فَبَيْنا نُوَطِّنُ أحشاءَنا ... أضاءَ لناعارضٌ فاستَطارا

٨ ـ وأقبل يزحف زَحْفَ الكَسيـ ... ـرِ سَوْقَ الرِّعاءِ البِطاءَ العِشَارا

٩ ـ تغنِّى وتضحك حافَاتُه ... خلالَ الغمامِ وتبكي مرارا

١٠ ـ كأنا تضيء لنا حُرَّةٌ ... تَشُدُّ إزاراً وتُرْخي إزارا

١١ ـ فلما خشينا بأن لا نجاءَ ... وأن لايكونَ قرارٌ قرارا

١٢ ـ أشار له آمِرٌ فوقه ... هَلُمَّ ، فَأَمَّ إلى ما أشارا

(الثِّماد : بقايا الماء في الحوض، والحرار جمع حَرَّة : أرض ذات حجارة سود. الآتاب جمع إتْب : وهو برد مشقوق من غير كُمَّيْنِ ولا جيب).

٦ـ طرائف من (معجم البلدان) :

أ ـ في رسم (الأُبُلّة) ـ بلدة على شاطىء دجلة.

قال ياقوت : حكي أن بكر بن النطاح الحنفي مدح أبا دلف العجلي بقصيدة ، فأثابه عليها عشرة آلاف درهم ، فاشتري بها ضيعة بالأبلة، ثم جاء بعد مُدَيْدَة، وأنشده:

بك ابتعتُ في نهر الأبلّة ضيعةً ... عليها قُصَيرٌ بالرُّخام مَشيدُ

إلى جَنْبِها أختٌ لها يعرضونها ... وعندك مال للهباتِ عَتَيدُ

فقال أبو دلف : وكم ثمن هذه الضيعة الأخري؟ فقال : عشرة آلاف درهم ، فأمر أن يدفع ذلك إليه ، فلما قبضها قال له:

اسمع مني يابكر، إن إلى جنب كلّ ضيعةٍ ضيعة أخرى إلى الصين وإلى مالا نهاية له، فإياك أن تجيئني غداً، وتقول : إلى جنب هذه الضيعةِ ضيعةٌ أخرى، فإن هذا شيء لاينقضي.

ب ـ في رسم (تاهَرْت) ـ اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب.

قال ياقوت عنها: «وهي كثيرة الأنداء والضباب والأمطار حتى إن الشمس بها قلَّ أن تُرى ...... ودخلها أعرابي من أهل اليمن يقال له :أبو هلال، ثم خرج إلى أرض السودان فأتى عليه يوم له وهج وحرّ شديد وسموم في تلك الرمال، فنظر إلى الشمس مضحية راكدة على قمم الرؤوس وقد صهرت الناس، فقال مشيراً إلى الشمس :

أما ـ والله ـ لئن عَزَزْتِ في هذا المكان، لطالما رأيتُكِ ذليلةً بتاهَرْت!

وأنشد : ما خلق الرحمنُ من طرفة ... أشهى من الشمس بتاهَرتِ

جـ ـ في رسم (جَبُّل) ـ بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي من دجلة.

قال : وبقاضيها يُضْرَبُ المثل ، وكان من حديثه أن المأمون كان راكباً يوماً في سفينة يريد واسطاً، ومعه القاضي يحيى بن أكثم، فرأى رجلا على شاطىء دجلة يعدو مقابل السفينة، وينادي بأعلى صوته:

ياأمير المومنين ، نعم القاضي قاضينا ، نعم القاضي قاضي جَبُّل !

فضحك يحيى بن أكثم ، فقال له المأمون : مايضحكك يا يحيى ؟ قال : يا أمير المؤمنين، هذا المنادي هو قاضي جَبُّل يثني على نفسه !

فضحك منه ، وأمر له بشيء، وعزله، وقال: لايجوز أن يلي المسلمين من هذا عقلُه.

٧ـ ومن نوادر الأعراب :

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق، أن المغيرة بن عبدالرحمن المخزومي ـ أحد القواد ، غزا مع مسلمة بن عبدالملك أرضَ الروم ـ كان أعور، أصيبت عينه في إحدى غزواته بلادَ الروم، وكان جواداً سمحاً، حيث ما نزل يَنْحَرُ الجُزُر، ويُطْعِم من جاء.

فجلس على مائدته يوما أعرابي، فجعل ينظر إلى الطعام وإلى وجه المغيرة ولا يأكل، فقال له المغيرة: مالك يا أعرابي ؟ قال : إنه ليعجبني طعامُك، وتَريبني عينُك ، قال: ومايريبك منها ؟ قال: أراك أعورَ ، تطعم الطعام ، وهذه صفة الدجَّال.

فضحك المغيرة، وقال : كل ياأعرابي ؛ فإن الدجال لا تصاب عينه في سبيل الله.

٨ـ عود إلى الشعر :

أ ـ ويقولون : شعر مناسبات !!

ينبز بعض المثقفين باباً ضخماً من تراثنا الشعري ـ في قديم وحديث ـ بأنه من «شعر المناسبات» ، ويرون فيه تكلفاً وزيفاً وادعاءً ، ولو أنصفوا لرأوا فيه ـ إذا ما أحسنوا القراءة ـ لآلىء ودرراً، وتجارب صادقَةً، وتضمينا لأدق مشاعر الشاعر وأخفاها، وفيضاً نفسيا بما يعانيه، يتخذ من المناسبة سبيلا إلى البَوْح به.

هذا «شوقى» يُدْعَى إلى حفل تكريم «السيد نصير» سنة ١٩٣٠م ـ وكان قد حقق لمصر بطولة عالمية في رفع الأثقال ـ فيلقي في الحفل قصيدة ، أولها:

شَرَفاً نُصَيْرُ ، ارفَعْ جبينك عالياً ... وتلَق من أوطانك الإكليلا

وفيها يستنهض همم الشباب إلى المجد ، بقوله:

هذا زمانٌ لا تَوسُّطَ عنْدَه ... يبغي المغامر عالياً وجليلا

كن سابقاً فيه أو ابقَ بمعزلٍ ... ليس التوسُّطُ للنبوغ سبيلا

ثم يغلبه إحساس بمعاناة خفية، فيندفع إلى خطاب المحتفى به ، قائلا:

قل لي نُصَيْرُ ـ وأنت بَرٌّ صادقٌ — أحَمَلْتَ إنساناً عليكَ ثقيلا؟
أحملْت دَيْناً في حياتك مرّةً؟ — أحملت يوماً في الضلوع غليلا؟
أحملت ظلماً من قريب غادر — أو كاشح بالأمس كان خليلا ؟
أحملت مَنّاً بالنهار مكرَّراً — والليلِ مِن مُسْدٍ إليك جميلا ؟
أحملت طغيان اللئيم إذا اغتنى — أو نال من جاه الأمور قليلا ؟
أحملت في النادي الغَبيَّ إذا التقى — من سامعيه الحمدَ والتبجيلا ؟
تلك الحياةُ وهذه أثقالُها — وُزِنَ الحديدُ بها فعاد ضئيلا

ب ـ ومن رقيق النسيب :

وعلى ذكر شوقي نذكر قطعة رقيقة ضمَّنها مسرحية (مجنون ليلى) وفيها نسج على معنى بيتي قيس :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيْفِ من مِنى — فهَيَّج أشواقَ الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غَيْرَهَا فكأنما — أثار بـ «ليلى» طائراً كان في صدري

فيضع شوقي على لسان «قيس» ـ وقد سمع حداء فيه ذكر «ليلى» ـ هذه الأبيات:

ليلى! منادٍ دعا ليلى فخفَّ له — نشوانُ في جَنَبَات الصَّدر عِربِيدُ
ليلى! انظروا البيدَ هل مَادَتْ بآهِلِها — وهل ترنمَّ في المزمار داود
ليلى! نداء بليلي رنَّ في أذني — سحر لعمري له في السمع ترديد
ليلى! تردَّدُ في سمعي وفي خلدي — كما تردَّدُ في الأيك الأغاريد
هل المنادون أهلوها وإخوتها — أم المنادون عُشَّاق معاميد
إن يَشْركوني في ليلى فلا رَجَعَتْ — جبالُ نجدٍ لهم صوتا ولا البيد
أغَيْرَ ليلاي نادوا أم بها هَتَفُوا — فداءُ ليلى الليالي الخُرَّدُ الغيدُ
إذا سمعتُ اسمَ ليلى ثُبْتُ من خبلي — وثابَ ما صَرَعَتْ مني العناقيد
كسا النداءَ اسمُها حُسْناً وحَبَّبَه — حتى كأن اسمها البُشْرَى أو العيدُ

ليلى؛ لعلّيَ مــجنون يخَــيّل لي	لا الحيُّ نادوا على ليلى ولانودوا

حـ ـ وفي معنى وداع الأحبة :

قطع ثلاث لا أعلم قائليها ، إلا أن كل قطعة منها تنم عن شاعرية :

* ويوم تولّت الأظعــانُ عنّا	وقوّض حاضرٌ، وأرنَّ حَادِي
مددتُ إلى الوداع يدي وأخرى	حبستُ بها الحياةَ على فؤادي

** ودَّعْـتُـه حيث لا تودِّعُـه	نفسٌ ولكنها تسير مَعَـهْ
ثم تولّى وفي الفؤاد له	ضيق محلّ وفي الدموع سَعَه

*** قالوا له إذْ سار أصحابه	فبدَّلوه البعدَ بالقرب
والله ما شَطَّتْ نوى ظاعنٍ	سار من العينِ إلي القلبِ

٩ ـ من دهاء المغيرة بن شعبة:

المغيرة بن شعبة الثقفي ـ رضي الله عنه ـ أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، شهد المشاهد معه ، وشهد اليمامة وفتوح الشام، وأصيبت عينه يوم اليرموك وتوفي بالكوفة سنة خمسين.

قال ابن عساكر في ترجمته ـ في تاريخ دمشق :

«وكان المغيرة داهية لايشتجر في صدره أمران إلا وجد في أحدهما مخرجا ، وكان يقال له: مغيرة الرأي. »

وحكى صوراً من دهائه ، فمن ذلك:

أ ـ استعمل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ المغيرة على البحرين ، فكرهوه ، فعزله، ثم خافوا أن يُرَدَّ عليهم ثانية ، فقال دهقان لهم :إن فعلتم ما آمركم لم يُرَدَّ عليكم المغيرة. قالوا : مُرْنا بأمرك ، قال : اجمعوا إليَّ مائة ألف درهم ، فجمعوا له ، فحمل المال إلى عمر فوضعه بين يديه ، وقال : إن المغيرة اختان هذا من مال الله ودفعه إليَّ. فبعث عمر إلى المغيرة ، فدعاه فقال : ما يقول هذا ؟ فقال المغيرة : كذب ـ أصلحك الله ـ إنما دفعت إليه مائتي ألف. فقال عمر للدهقان : ما تقول ؟ قال الدهقان : ما دفع إليَّ شيئاً ولكنا كرهناه فخفنا أن تردَّه علينا. قال عمر للمغيرة : ما أردت بقولك : مائتي ألف ؟

قال : كذب عليَّ الخبيث ، فأحببت أن أخزيه.

ب ـ خطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة ، وكان الفتى طريراً جميلاً ، فأرسلت المرأة إليهما : لست أجيب أحداً منكما دون أن أراه وأسمع كلامهما ، فاحضرا إن شئتما. فحضرا ، فأجلستهما حيث تراهما وتسمع كلامهما ، فلما رآه المغيرة ونظر إلى جماله وشبابه وهيئته أيس منها وعلم أنها تؤثره عليه ، فأقبل على الفتى وقال : لقد أوتيت جمالاً وحسناً وثياباً ، فهل عندك سوى ذلك ؟ قال : نعم ، وعدَّد محاسن ثم سكت، فقال له المغيرة : كيف حسابك ؟ قال : ما يسقط عليَّ منه شيء ، وإني لأستدرك أدقَّ من الخردلة. قال المغيرة : لكني أضع البَدْرَة في زاوية البيت فينفقها أهلي على ما يريدون ، فما أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها.

فقالت المرأة : والله ، لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحبُّ إليَّ من هذا الذي يحصي عليّ مثل الخردلة. فتزوجت المغيرة.

** وعلى دهاء المغيرة، فقد حكى مرة عن نفسه ، قال:

ما غلبني أحد إلا غلام من بني الحارث بن كعب، فإني خطبت امرأة فقال لي : إني أربأ بك عنها ، فقد رأيت رجلاً يقبلها. فانصرفت عنها ، فبلغني أنه تزوجها ، فلقيته فقلت : ألم تقل لي إنك رأيت رجلاً يقبِّلها ؟ قال : بلى ، رأيت أباها يقبِّلها.

يقول المغيرة : فإذا ذكرت ما فعل بي غاظني ذلك.

١٠ـ عود على بدء

« الثناء قبل الدعاء »

روى البخاري في الأدب المفرد ـ باب دعوات النبي صلى الله عليه وسلم ـ عن رفاعة الزُّرَقي ، قال :

لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« استووا حتى أثني على ربي عز وجل ».

فصاروا خلفه صفوفاً، فقال :

« اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابضَ لما بَسَطْتَ ، ولا مُقَرِّبَ لما باعدتَ ، ولا مُبَاعِدَ لما قَرَّبْتَ ، ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا مانعَ لما أعطيتَ.

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الحرب ، اللهم عائذاً بك من سوء ما أعطيتنا ، وشرٍّ ما منعتَ منا.

اللهم حبِّب إلينا الإيمان، وزيِّنه في قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين.

اللهم توفَّنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ، ولا مفتونين.

اللهم قاتِلِ الكفرةَ الذين يصدون عن سبيلك ، ويكذبون رسلك ، واجعل عليهم رِجْزَكَ وعذابك ، اللهم قاتِلِ الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إلهَ الحقّ».

قراءة في كتاب :

قراءة في كتاب :
«غير المسلمين في المجتمع الإسلامي»
للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي
إعداد : د . إبراهيم محمد الحريري

يقيم الإسلام العلاقة بين أبنائه المسلمين ، وبين مواطنيهم من غير المسلمين على أسس وطيدة من التسامح ، والعدالة ، والبر ، والرحمة ، وهي أسس لم تعرفها البشرية قبل الإسلام ولا بعده إلى أيامنا هذه ، فلا تكاد تصل إلى هذه المثل في مجتمع ما ، وفي وقت ما ، إلا غلب عليها الهوى والعصبية ، وضيق الأفق والأنانية ، وكان الصراع الدائم مع المخالفين في الدين ، أو المذهب ، أو الجنس ، أو اللون . وأساس هذه العلاقة كما قررها الإسلام مع غير المسلمين قوله سبحانه وتعالى: (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) سورة الممتحنة ٨ ، ٩ .

فالبر والقسط مطلوبان من المسلم للناس جميعاً ، ولو كانوا كفاراً بدينه ، ما لم يقفوا في وجهه ويحاربوا دعاته ، ويضطهدوا أهله.

ولأهل الكتاب من بين غير المسلمين منزلة خاصة في المعاملة والتشريع . والمراد بأهل الكتاب : من قام دينهم في الأصل على كتاب سماوي ، وإن حُرِّف وبُدِّل بعد ، كاليهود والنصارى.

فالقرآن ينهي عن مجادلتهم في دينهم إلا بالحسنى ، حتى لايوغر الصدور (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ،وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون) العنكبوت : ٤٦ .

يبيح الإسلام مؤاكلة أهل الكتاب ، والأكل من ذبائحهم ، والتزوج من نسائهم (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولامتخذي أخدان) المائدة : ٥ .

وهذا الحكم في أهل الكتاب وإن كانوا في غير دار الإسلام ، أما المواطنون المقيمون في دار الإسلام فلهم منزلة ومعاملة خاصة ، وهؤلاء هم أهل الذمة.

والمقصود بالذمة : العهد والضمان والأمان ، عهد الله وعهد رسوله ، وعهد

جماعة المسلمين فهي تعطى أهلها (أهل الذمة) ما يشبه في عصرنا (الجنسية) السياسية.

فالذمي على هذا الأساس من (أهل دار الإسلام) ، كما يعبر عنه الفقهاء ، أو من حاملي (الجنسية الإسلامية) ، كما يعبر المعاصرون.

وهو عقد مؤبد يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم ، وتمتعهم بحماية المسلمين بشرط بذلهم (الجزية) والتزامهم أحكام القانون الإسلامي في غير الشؤون الدينية ، وبهذا يصيرون من أهل (دار الإسلام).

وهذه لمحة سريعة عما لهم من حقوق ، وماعليهم من واجبات.

أولاً : حقوق أهل الذمة :

أ ـ حق الحماية : وتشمل :

أ ـ الحماية من الاعتداء الخارجي.

ب ـ الحماية من الاعتداء الداخلي.

ففيما يتعلق بالحماية من الاعتداء الخارجي ، فيجب على ولي الأمر أن يوفر لهم هذه الحماية ، بما له من سلطة شرعية ، وبمالديه من قوة عسكرية فقد جاء في «مطالب أولى النهى» من كتب الحنابلة :

« يجب على الإمام حفظ أهل الذمة ومنع من يؤذيهم ، وفك أسرهم ودفع من قصدهم بأذى إن لم يكونوا بدار حرب ، بل كانوا بدارنا ، ولو كانوا منفردين ببلد» وعلل ذلك بأنهم : «جرت عليهم أحكام الإسلام وتأبد عقدهم ، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين»[1].

ولقد أبى شيخ الإسلام ابن تيمية أن يطلق القائد التتري «قطلوشاه» أسرى المسلمين دون أسرى أهل الذمة حيث قال : «لانرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصاري ، فهم أهل ذمتنا ، ولاندع أسيراً ، لا من أهل الذمة ، ولا من أهل الملة ، فلما رأى إصراره وتشدده أطلقهم له.[2].

وفيما يتعلق بالحماية من الظلم الداخلي : فقد جاءت الآيات والأحاديث في تحريم الظلم وتقبيحه ، وبيان آثاره الوخيمة ومن ذلك تحريم ظلم غير المسلمين من أهل العهد والذمة.

«من ظلم معاهداً ، أو انتقصه حقاً ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه ، فأنا حجيجه يوم القيامة.[3].

ولهذا وغيره اشتدت عناية المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين بدفع الظلم عن أهل الذمة ، وكف الأذي عنهم ، والتحقيق في كل شكوي تأتي من قبلهم[٤].

وفقهاء الإسلام من كافة المذاهب صرحوا وأكدوا بأن على المسلمين دفع الظلم عن أهل الذمة ، والمحافظة عليهم ؛ لأن المسلمين حين أعطوهم الذمة قد التزموا دفع الظلم عنهم ، وهم صاروا به من أهل دار الاسلام ، بل صرح بعضهم بأن ظلم الذمي أشد من ظلم المسلم إثما.

وتحت هذه الحماية عدة صور :

١ ـ حماية الدماء والأبدان :

فدماؤهم وأنفسهم معصومة باتفاق المسلمين ، وقتلهم حرام بالإجماع ويعدّ كبيرة من الكبائر يقول عليه الصلاة والسلام : «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»[١].

واختلفوا في مسألة قتل المسلم بالذمي ؟ على ثلاثة أقوال فالجمهور ـ ومنهم الشافعي وأحمد ـ لايجيزون قتل المسلم بالكافر. لحديث «لايقتل مسلم بكافر»[٢].

وقال مالك ، والليث : إذا قتل المسلم الذمي غيلة يقتل به وإلا لم يقتل به.

وذهب الحنفي ، والتحفي ، وابن أبي ليلي ، وعثمان البتي وأبو حنيفة ، وأصحابه إلى أن المسلم يقتل بالذمي لعموم النصوص الواردة في إيجاب القصاص.

وهو المذهب الذي اعتمدته الخلافة العثمانية ، ونفذته في أقاليمها لعدة قرون.

وكما حمى الإسلام أنفسهم من القتل حمى أبدانهم من الضرب ، والتعذيب فلايجوز إلحاق الأذى بهم حتى لو امتنعوا عن أداء الواجبات كالجزية والخراج ، هذا مع أن الإسلام تشدد كل التشدد مع المسلمين إذا امتنعوا عن دفع الزكاة.

٢ ـ حماية الأموال :

وهذا مما اتفق عليه المسلمون في جميع المذاهب ومختلف العصور. روى أبو يوسف في «الخراج» ما جاء في عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، لأهل نجران : «ولنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم على أموالهم ، وملتهم ، وبيعهم ، وكل ماتحت أيديهم من قليل أو كثير ..[١] » فمن سرق مالاً من ذمي قطعت يده ، ومن غصبه عزر وأعيد المال إلى صاحبه ومن استدان من ذمي فعليه أن يقضي دينه فإن مطله وهو غني حبسه الحاكم حتى يؤدي ما عليه.

وبلغ من رعاية الاسلام لحرمة أموالهم وممتلكاتهم ، أنه يحترم مايعدونه حسب

دينهم مالاً فالخمر والخنزير لا يعتبران عند المسلمين مالاً متقوماً ومن أتلف لمسلم خمراً أو خنزيراً لا غرامة عليه ولا تأديب ، بل هو مثاب مأجور على ذلك بخلاف ما لو أتلفهما لغير المسلم فهما مالٌ عنده يغرم قيمتهما.

٣ ـ حماية الأعراض :

فلا يجوز لأحد أن يسب الذمى أو يتهمه بالباطل ، أو يشنع عليه بالكذب ، أو يغتابه ، أو غير ذلك.

يقول القرافي في كتابه[١] :

إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقا علينا ، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا (حمايتنا) وذمتنا وذمة الله تعالى ، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام ، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فقد ضيع ذمة الله ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام. وورد مثل ذلك في الدر المختار من كتب الحنفية[٢].

٤ ـ التأمين عند العجز والشيخوخة والفقر :

وقد ضمن الإسلام لغير المسلمين في ظل دولته ، كفالة المعيشة الملائمة لهم ولمن يعولونهم ، قال صلى الله عليه وسلم : «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته». وعلى هذا مضت سنة الراشدين ومن بعدهم.

ففي عقد الذمة الذي كتبه خالد لأهل الحيرة بالعراق ، وكانوا من النصارى: «وجعلت لهم ، أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وكيل من بيت مال المسلمين هو وعياله».

ورأي عمر شيخاً يهودياً يسأل الناس ، فسأله عن ذلك فعرف أن الشيخوخة والحاجة ألجأته إلي ذلك ، فأخذه وذهب به إلى خازن بيت مال المسلمين ، وأمره أن يفرض له ولأ مثاله من بيت المال مايكفيهم ويصلح شأنهم وقال في ذلك:

ما أنصفناه إذ أخذنا منه الجزية شاباً ، ثم نخذله عند الهرم.

وذكر الإمام النووي في المنهاج أن من فروض الكفاية دفع ضرر المسلمين ككسوة عار ، وإطعام جائع إذا لم يندفع بزكاة وبيت المال ».

وذكر الرملي في نهاية المحتاج الى شرح المنهاج «أن أهل الذمة كالمسلمين في ذلك فدفع الضرر عنهم واجب.

٥ ـ حرية التدين : وأساس هذا الحق قوله تعالى «لا إكراه في الدين قد تبين

الرشد من الغي».

قال ابن كثير : أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام . وسبب نزول هذه الآية يبين لنا جانباً من إعجاز هذا الدين ذلك أن المرأة من الأنصار كانت تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده (حيث كانت محرومة النسل) فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقال آباؤهم : لاندع أبناءنا يجلون ، لا ندعهم يعتنقون اليهودية ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

وفي عهد عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء ـ القدس نص على حريتهم الدينية وحرمة معابدهم وشعائرهم : «هذا ما أعطى عبدالله بن عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وسائر ملتها ، لاتسكن كنائسهم ، ولاتهدم ، ولاينتقص فيها ، ولامن حيزها ، ولامن صليبها ولا من شيء من أموالهم ، ولايكرهون على دينهم ، ولايضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ».

وكل ما يطلبه الإسلام من غير المسلمين أن يراعوا مشاعر المسلمين ، وحرمة دينهم فلا يظهروا شعائرهم وصلبانهم في الأمصار الإسلامية ، ولايحدثوا كنيسة في مدينة إسلامية ، لم يكن لهم فيها كنيسة من قبل ، مما قد يؤدي إلى فتنة واضطراب. على أن من فقهاء الإسلام من أجاز لأهل الذمة إنشاء الكنائس والبيع إذا أذن لهم إمام المسلمين بذلك ، بناء على مصلحة رآها.

٦ ـ حرية العمل والكسب :

فقد قرر الفقهاء أن أهل الذمة في البيوع ، والتجارات ، وسائر العقود والمعاملات المالية كالمسلمين ، ولم يستثنوا من ذلك عقد الربا ، فإنه محرم عليهم كالمسلمين وقد روي أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى مجوس هجر : «إما أن تذروا الربا ، أو تأذنوا بحرب من الله ورسوله».

كما يمنع أهل الذمة من بيع الخمور والخنازير في أمصار المسلمين ، وفتح الحانات فيها لشرب الخمر ، وتسهيل إدخالها وتداولها إلى أمصار المسلمين ، وفيما عدا هذه الأمور المحدودة ، يتمتع الذميون بتمام حريتهم في مباشرة التجارات والصناعات والحرف المختلفة قال آدم ميتز ، في «كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى» : « ولم يكن في التشريع الإسلامى ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال .. فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع ، وأطباء .. ».

٧ ـ تولي وظائف الدولة :

ولأهل الذمة الحق في تولي وظائف الدولة كالمسلمين إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية كالإمامة ، ورئاسة الدولة ، والقيادة في الجيش ، والقضاء والولاية علي الصدقات ونحو ذلك ، وماعدا ذلك من وظائف الدولة يجوز إسناده إلى أهل الذمة إذا تحققت فيهم الشروط التي لابد منها من الكفاية ، والأمانة ، والإخلاص للدولة . بخلاف الحاقدين الذين تدل الدلائل على بغض مستحكم منهم للمسلمين كالذين قال الله فيهم : « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالاً ، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون» سورة آل عمران ١١٨.

وقد بلغ التسامح بالمسلمين أن صرح فقهاء كبار ، مثل الماوردي في «الأحكام السلطانية» ، بجواز تقليد الذمي «وزارة التنفيذ» ووزير التنفيذ هو الذى يبلغ أوامر الإمام ، ويقوم بتنفيذها ، ويمضي مايصدر عنه من أحكام وهذا بخلاف «وزارة التفويض» التي يكل فيها الإمام إلي الوزير تدبير الأمور السياسية والإدارية والاقتصادية بما يراه.

ثانياً : واجبات أهل الذمة وتنحصر فيما يأتى :

١ ـ الجزية والخراج.

٢ ـ التزام أحكام القانون الإسلامي في المعاملات المدنية ونحوها.

٣ ـ احترام شعائر المسلمين ومشاعرهم.

الجزية والخراج :

أما **الجزية** فهى ضريبة سنوية على الرؤوس ، تتمثل في مقدار زهيد من المال يفرض على الرجال البالغين القادرين ، على حسب ثرواتهم ، أما الفقراء فمعفون منها إعفاء تاما ، قال الله تعالى : « لايكلف الله نفساً إلا ما آتاها » الطلاق ٧ وليس لها من حد معين ، وإنما ترجع إلى تقدير الإمام الذى عليه أن يراعى طاقات الدافعين ولايرهقهم ، كما عليه أن يراعي المصلحة العامة للأمة.

والأصل في ذلك قوله تعالى : «قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» التوبة ٢٩.

ومعنى الصغار التسليم وإلقاء السلام والخضوع لحكم الدولة الإسلامية.

وأما **الخراج** : فهو ضريبة مالية تفرض على رقبة الأرض إذا بقيت في أيديهم ويرجع تقدير ذلك إلى الإمام أيضا فله أن يقاسمهم ناتج الأرض كالثلث والربع والنصف مثلاً .. وله أن يفرض مقدارا محددا مكيلا أو موزونا بحسب ماتنتجه الأرض كما صنع عمر في سواد العراق . وقد يقوم ذلك بالنقود . والجزية تسقط بالإسلام دون الخراج.

ووجه إيجاب الجزية على أهل الذمة ، أن الإسلام أوجب على أبنائه «الخدمة العسكرية» باعتبارها فرض عين أو فرض كفاية وناط بهم واجب الدفاع عن الدولة وأعفى من ذلك غير المسلمين.

وذلك أن الإسلام لايجيز لغير المسلمين الدفاع عن عقيدة يعتقد بطلانها وفي سبيل دين لايؤمن به ، ولهذا قصر واجب الجهاد على المسلمين فقط وطلب من غير المسلمين أن يسهموا في نفقات الدفاع والحماية للوطن عن طريق ماعرف في المصطلح الإسلامي باسم «الجزية».

وتسقط الجزية أيضا باشتراك أهل الذمة مع المسلمين في القتال والدفاع عن دار الإسلام إذا رأى الإمام المصلحة في ذلك.

ويتبع الحديث عن الجزية ما فرضه عمر على تجار أهل الذمة بمقدار نصف العشر في المال الذي يتجرون به مرة في السنة، إذا انتقلوا به من بلد إلى آخر فهي أشبه بالضريبة الجمركية في عصرنا، وكان يأخذ ربع العشر من التجار المسلمين والعشر من تجار أهل الحرب.

والإشكال الذي يرد هنا، لم أخذ عمر نصف العشر من تجار أهل الذمة وأخذ ربع العشر من تجار المسلمين ؟ ولا إشكال في أخذ العشر من تجار أهل الحرب لأنها معاملة بالمثل.

والجواب على ذلك: أن السبب في هذا التضعيف. هو أن الذمي لا يؤخذ من أمواله شيء سوى ما يؤخذ من أمواله التجارية التي ينتقل بها من بلد إلى بلد، أما أمواله التجارية التي في بلده، وأمواله الباطنة كالذهب والفضة، وزروعه وسوائمه فلا يؤخذ منها شيء بخلاف المسلم، إذ يؤخذ من زكاة هذه الأموال جميعا، وعلى هذا تكون التكاليف المالية على المسلم أكثر منها على الذمي.. وهذا رأي عبدالكريم زيدان ويرى أبو الأعلى المودودي أن معظم المسلمين في ذلك الزمان كانوا منتظمين بالدفاع عن الوطن الإسلامي فأصبحت التجارة كلها بأيدي الذميين، فرأى الفقهاء أن ينتقصوا من الضريبة على التجار المسلمين، حفزا لهم على التجارة وحفظا لمصالحهم التجارية.

أضف إلى هذه التعليلات أن هذا يعدّ اجتهادا من عمر بناء على اجتهاد مصلحي اقتضته السياسة الشرعية في زمانه لم يرد فيه نص شرعي والقاعدة الفقهية في ذلك: لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان.

٢ـ التزام أحكام القانون الاسلامي :

فعلى غير المسلمين في الدولة الإسلامية أن يلتزموا أحكام الإسلام التي لا تمس عقائدهم وحريتهم الدينية في الدماء، والأموال، والأعراض أي في النواحي المدنية والجنائية ونحوها. وفي هذا يقول الفقهاء : لهم مالنا وعليهم ما علينا.

فمن سرق من أهل الذمة أقيم عليه حد السرقة، كما يقام على المسلم، ومن قتل نفسا أو قطع طريقا، أو تعدى على مال، أو زنى بامرأة، أو رمى محصنة، أو غير ذلك من الجرائم أخذ بها، وعوقب بما يعاقب به المسلم لأن هذه الأمور محرمة في ديننا، وقد التزموا حكم الإسلام فيما لا يخالف دينهم أيضاً.

ومثل ذلك في المعاملات المالية والمرئية من البيوع، والإجازات، والشركات، والرهن أو الشفعة، والمزارعة، وإحياء الموات، والحوالة، والكفالة، وغيرها من العقود والتصرفات.. إلا الخمر والخنزير عند النصارى فقد استثناهما كثير من الفقهاء، لاعتقاد حلهما في دينهم، على أن لا يجاهروا بهما، بخلاف الربا فهو حرام عليهم فلا يقروا عليه.

٣ـ مراعاة شعور المسلمين:

وهذا هو الواجب الثالث عليهم: أن يحترموا شعور المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم، وأن يراعوا هيبة الدولة الإسلامية التي تظلهم بحمايتها، فلا يجوز أن يسبوا الإسلام ورسوله وكتابه جهرة، ولا أن يروجوا من العقائد والأفكار ما ينافي الإسلام ما لم يكن ذلك جزءا من عقيدتهم كالتثليث والصلب عند النصارى.

وعليهم أن لا يظهروا الأكل والشرب في نهار رمضان، مراعاة لعواطف المسلمين وما أشبه ذلك.

ويتبع الحديث عن الحقوق ما كان عليه المسلمون مع أهل الذمة من التسامح بعيدا عن نطاق الحقوق التي تنظمها القوانين، ويلزم بها القضاء. وتشرف على تنفيذها الحكومات.

ذلك هو روح التسامح، التي تبدو في حسن المعاشرة ولطف المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية من البر، والرحمة، والإحسان، وهي الأمور التي تحتاج إليها الحياة اليومية، ولا يغني فيها قانون ولا قضاء، وهذه الروح لا تكاد توجد في غير المجتمع الإسلامي.

وتتجلى هذه السماحة في أمور :

١ـ في شأن الوالدين المشركين « وصاحبهما في الدنيا معروفا » لقمان: ١٥

٢ـ في البر والإقساط مع المخالفين « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين» الممتحنة: ٨.

٣ـ في الإحسان إلى الأسرى من المشركين «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » الإنسان: ٨ .

٤ـ في الإنفاق على ذويهم وجيرانهم من المشركين: «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ».. البقرة ٢٧٢

فقد روى محمد بن الحسن في كتابه شرح السير الكبير أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى أهل مكة مالا لما قحطوا ليوزع على فقرائهم.

٥ـ في أدب المجادلة معهم «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» العنكبوت: ٤٦

ذكر ابن إسحق في السيرة: أن وفد نجران ـ وهم من النصارى ـ لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، دخلوا مسجده بعد العصر، فكانت صلواتهم، فقاموا يصلون في المسجد، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوهم» فاستقبلوا المشرق فصلوا صلواتهم».

وعقب ابن القيم بجواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين، وتمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين، وفي مساجدهم، إذا كان عارضا، ولا يمكنون من اعتياد ذلك.

وروى البخاري عن أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم عاد يهوديا ، وعرض عليه الإسلام فأسلم فخرج وهو يقول: الحمدلله الذي أنقذه بي من النار.

وروى البخاري أيضا: أن النبي صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله، وكان في وسعه أن يستقرض من أصحابه، ولكن أراد أن يعلم أمته. وهكذا سار الخلفاء الراشدون والتابعون لهم بإحسان على نهجه صلى اله عليه وسلم.

فمن خلال هذا البيان للحقوق والواجبات لأهل الذمة في الدولة الاسلامية يتبين لنا مدى التسامح الذي قرره الإسلام وأبناؤه مع غير المسلمين في الدولة الإسلامية. فقد نظر إليهم نظرته لأبنائه، من حيث الحقوق والواجبات، والمساواة، والأمان، ومزاولة حرياتهم العقائدية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وإن كانت بعض الفروق فذلك؛ لأن عدم التزامهم بالمنهج الإسلامي من جهة، وعدم إلزامهم به من جهة ثانية كان السبب لتشريع بعض الأحكام الخاصة بهم. وفي آخر المطاف أرجو أن أكون قد وفقت بتقديم هذه الدراسة المتواضعة للقارىء الكريم والتى استمدت من الكتاب القيم لشيخنا العلامة الدكتور القرضاوي أمد الله في عمره وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.


استطلاعات

بيشة عروس النخيل . .
وملهمة الشعراء . .

عبدالرحمن حامد القرني

لأنها لا تحتاج إلى مقدمات.. فلنقل إنها عروس النخيل، إذ ينبض قلبها بثلاثة ملايين نخلة.. إنها :بيشة

فحين تطلّ من الجو ترى بساطاً سندسياً يفترش مساحات واسعة من الأرض المستوية التي جللها اللون الأخضر البديع في بانوراما رائعة من صنع الخالق العظيم.

ويتراءى لك الوادي العملاق منداحاً بين هذه المشاهد الخلابة.. وأينما وجهت ناظريْك تر أشجار النخيل متعانقة في شموخ وكبرياء.. تتناثر حولها النوق والجمال.. رمز الأصالة والخير والعطاء. وحين تطأ قدماك أرض بيشة.. يلقاك أهلها بكل الحفاوة والترحاب والكرم العربي الصادق الأصيل.. وتبدو لك الأصالة العميقة الجذور متناغمة مع الحضارة والتطور والنماء الذي صنعه إنسان هذه الأرض المعطاء.. ولسنا نتجاوز الحقيقة حين نقول بأن الكرم العربي الحاتمي الشهير لا يزال بكل مظاهره الأصيلة سمة من سمات الإنسان في بيشة. ونتجول معا بين ربوعها ونطوف جنباتها لنشاهد صور الحضارة والمعاصرة ونتعرف على النهضة الشاملة التي تحققت على أرضها. حين تطلّ من الجوّ ترى اخضرارا ممتدا يفترش مساحة شاسعة من الأرض المستوية في معظم أجزائها مع انتصاب عدد من التلال الملوّنة بلون الماء.. ويتبيّن ذلك الوادي العملاق الذي ينداح مبسوطا بين هذه المهرجانات الزراعية.. وبكل زاوية من العين ترى نخلة.. وإلى جوارها جمل تحملك رؤيته إلى أصول التاريخ في هذه الجزيرة المعطاء وبكل أبعاد الرّصد تجد الإنسان الشامل يحمل بيد أصالة وبالأخرى حضارة.. ويحيط بكلّ هذا الكرم منقطع النظير.. ولا مبالغة إذا قلنا ان بقية العرب تعيش الآن في بيشة.

«بيشة».. أم «وادي بيشة»..؟؟

أيهما اكتسب شهرته من الآخر؟؟

التاريخ يتحدث ويؤكد أن أهمية بيشة استمدت من أهمية الوادي نفسه.. لم لا وهذه المدينة التي عشقها الكثيرون تدين بشهرتها لهذا الوادي الذي يضرب بأسوده المثل في الشجاعة والإباء.. فهاهي الخنساء عندما أرادت أن تمتدح أخاها صخرا في شجاعته قالت :

وكأنك إذ يلتقي بك دونه   أسد ببيشة كاشر الأنياب

وقد ذكر بيشة لبيد بن ربيعة العامري في معلقته حيث قال في وصف ناقته :

حُفزت وزايلها السراب كأنها   أجزاع بيشة أثلها ورجامها

وقال الأحوص مادحاً الخليفة عمر بن عبدالعزيز :

حتى كأنك يلتقي بك دونهم   من أسد بيشة خادر مستبسلُ

وبيشة وبيش «بكسر الباء » موضعان قال الشاعر :

سقى جدثاً أعراض عرنة   وبيشة وسمي الربيع ووابله

وسميت بيشة بأسماء مختلفة وتعددت الروايات حول التسمية ولكن الأصح هو ما يقال : إن كلمة «بيشة» فارسية وتعني الغابة .. ولعل من المناسب أن نتطرق إلى موقف تاريخي مهم ورد في كتاب «العقد الفريد » لابن عبدربه الأندلسي جزء (١) ص ٢٥٦ في عام الوفود وذلك عندما قدم جرير بن عبدالله البجلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن منزله ببيشة فقال جرير:

(سهل ودكداك ، وسلم وأراك ، وحمض وعلاك ، إلى نخلة ونخلة ماؤها ينبوع، وجنابها مريع ، وشتاؤها ربيع).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن خير الماء الشَّبم ، وخير المال الغنم ، وخير المرعى الأراك ، والسَّلم إذا أخلف كان لجينا ، وإذا أسقط كان َدرينا ، وإذا أكل كان لَبينا).

وفي كلامه عليه السلام (إن الله خلق الأرض السفلى من الزَّبد الجفاء ، والماء والكُباء).

ويقول ياقوت الحموي : (بيشة بالهاء - اسم قرية غناء في واد كثير الأهل....

وقال القاسم بن معن الهذلي :

بيشة وزئنة أرضان... وهما واديان) ، ونظراً لضخامة وادي بيشة وأهميته التاريخية فقد تردد اسمه كثيراً في بعض النصوص الأدبية العربية .. وحتى سيل هذا الوادي كان مضرب الأمثال في القوة والاندفاع مما حدا بشاعر قريش أن يقول :

وجاءت من أباطحها قريشٌ ... كسيلٍ أتى بيشة حين سالا

وقال حسان بن ثابت :

كأنهم في الوغى والموت مكتنع ... أسدٌ ببيشة في أرساغها فدع

وقد ذكرت في معجم البلدان وفي كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبري وفي حديث لابن اسحاق حيث ذكر أن (ذا نفر) دعا قومه ومن أجابه وقاتل أبرهة الأشرم في بيشة حيث كان أبرهة متوجهاً لهدم المسجد الحرام وهُزم ذو نفر ومن معه .

وللحب مكان في بيشة

ابن الدُّمَيْنَة

عبدالله بن الدُّمينة من خثعم الشاعر المشهور وهو : عبدالله بن عبيدالله أحد بني عامر بن تيم الله بن مبشر بن أكلب بن ربيعة بن عفرس بن حلف بن أفتل وهو خثعم بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك وقيل أكلب هو ابن ربيعة بن نزار ليس ابن ربيعة بن عفرس ، وإنهم حالفوا خثعم ونزلوا فيهم فنسبوا إليهم.

وابن الدُّمينة يكنى : (أبا السري) وكان بلغه أن رجلاً من أخواله من سلول يقال له : مزاحم بن عمرو ، يأتي امرأته ليلاً فرصده حتى أتاها فقتله ثم قتلها بعده ثم اغتالته سلول بعد ذلك فقتلته وكان قاتله .. مصعب بن عمرو بن مزاحم أخو مزاحم وكان مزاحم بن عمرو قد هجا ابن الدُّمينة بقصيدة أفحش فيها وذكر فيها امرأته :

يا ابن الدُّمينة والأخبار يرفعها ... وخد النجائب والمحقور يخفيها

يا ابن الدُّمينة إن تغضب لما فعلت ... فطال حزنك أو تغضب مواليها

هذه الأبيات في قصيدة لمزاحم بن عمرو .. فلما بلغ ابن الدمينة شعر مزاحم أتي امرأته فقال لها :

قد قال فيك هذا الرجل ما قال وقد بلغك ، قالت :

والله ما رأى ذلك مني قط .. قال : فمن أين له العلامات ؟ قالت : وصفهن له النساء قال : هيهات ثم أمسك مدة وصبر حتى ظن أن مزاحماً قد نسي القصة ، ثم أعاد عليها القول ، وأعادت الحلف ، فقال لها : والله لئن لم تمكنيني منه لأقتلنك ، فعلمت أنه سيفعل ذلك ، فبعثت إليه وواعدته ليلاً ، وقعد له ابن الدُّمينة وصاحب له فجاءها للموعد فجعل يكلمها وهي مكانها فلم تكلمه ، فقال لها : (ياحَمّاء) ما هذا الجفاء الليلة ؟؟ فتقول له بصوت ضعيف : ادخل.

فدخل فأهوى بيده ليضعها عليها فوضعها على ابن الدُّمينة فوثب عليه وصاحبه وقد جعل له حصى في ثوب فضرب بها كبده حتى قتله ، وأخْرَجَه فطرحه ميتاً فجاء أهله فاحتملوه ولم يجدوا به أثر السلاح، فعلموا ان ابن الدُّمينة قتله وقد قال ابن

الدمينة في تحقيق ذلك :

قالوا هجتك سلول اللؤم مخفية ... فاليوم أهجو سلولاً لا أخافيها

قالوا هجاك سلوليّ فقلت لهم ... قد أنصف الصخرة الصمّاء راميها

وقال ابن الدُّمينة أيضاً يذكر دخول مزاحم ووضعه يده عليه :

لك الخير إن واعدت حَمّاء فالقها ... نهاراً ولا تُدلج إذا الليل أظلما

فإنك لا تدري أبيضاء طفلة ... تعانق أم ليثاً من القوم قشعما

فلما سرى عن ساعدي ولحيتي ... وأيقن أني لست حَمّاء جمجما

ثم أتى ابن الدُّمينة امرأته فطرح على وجهها قطيفة ، ثم جلس عليها حتى قتلها .. فخرج جناح أخو المقتول إلى أحمد بن إسماعيل فاستعداه على ابن الدُّمينة فبعث إليه فحبسه وقالت أم أبان والدة مزاحم بن عمرو المقتول وهي من خثعم ترثي ابنها وتحضض مصعباً وجناحاً أخويه :

بأهلي ومالي بل بجل عشيرتي ... قتيلُ بني تيم بغير سلاح

فهلا قتلتم بالسلاح ابن أختكم ... فتظهرَ فيه للشهود جراح

فلا تطعموا في الصلح مادمت حيةً ... ومادام حياً مصعب وجناح

ألم تعلموا أن الدوائر بيننا ... تدور وأن الطالبين شحاح

فلما طال حبسه ولم يجد عليه أحمد بن إسماعيل سبيلا ولا حجة خلاه ، وقتلت بنو سلول رجلاً من خثعم مكان المقتول ، وقتلت خثعم بعد ذلك نفراً من سلول ولهم في ذلك قصص وأشعار.

وأقبل ابن الدُّمينة حاجاً بعد مدة طويلة ، فنزل بتبالة ، فعدا عليه مصعب أخو المقتول لما رآه ، وقد كانت أمه حرضته عليه وقالت :

اقتل ابن الدُّمينة، فإنه قتل أخاك ، وهجا قومك ، وذم أختك ، وقد كنت أعذرك قبل هذا لأنك كنت صغيراً وقد كبرتِ الآن. فلما أكثرت عليه خرج من عندها وبصر بابن الدُّمينة واقفاً ينشد الناس فغدا إلى جزّار فأخذ شفرته، وعدا على ابن الدُّمينة فجرحه جراحتين فقيل إنه مات لوقته وقيل: بل سلم تلك الدفعة ومرّ مصعب به بعد ذلك وهو في سوق العبلاء ينشد ، فعلاه بسيفه ، حتى قتله واقتحم مصعب داراً وأغلقها على نفسه فجاءه رجل من قومه

فصاح به :

يا مصعب، إن لم تضع يدك في يد السلطان قتلتك العامة فاخرج إليه. فلما عرفه قال له :

أنا في ذمتك حتى تسلمني إلي السلطان .. قال : نعم - فخرج إليه ووضع يده في يده فسلمه إلى السلطان فقذفه في سجن تبالة وفي ذلك قصص وأشعار .

ولعل الكثيرين يتذكرون قصة الحب الخالدة التي دارت في (وادي بيشة) الأخضر بين (ابن الدُّمينة الخثعمي) ومحبوبته (أميمة البيشية الحسناء) حين كانا يلتقيان وعلى (ثغاء) ضأنه يقول ابن الدمينة لأميمة البيشية الحسناء :

وأنتِ التي قطّعْتِ قلبي حرارةً ... ومزّقت قَرْح القَلْبِ فَهْوَ كليمُ

وأنتِ التي كلفْتِني دَلَجَ السُّرَى ... وجُونُ القطا بالجَلْهَتين جُثومُ

وأنتِ التي أحفظتِ قومي فكلُّهم ... بَعِيدُ الرِّضا داني الصدودِ كظيمُ

فترد عليه أميمة بحياء ولوعة معاتبةً وتقول :

وأنْتَ الذي أخلفْتَنِي ما وعَدْتَني ... وأشْمَتَّ بي مَنْ كان فيكَ يلومُ

وأبرزْتَني للناس ثم تركْتَني ... لهم غَرضاً أُرْمى وأنتَ سليمُ

فلو أن قولاً يَكْلُمُ الجسم قد بدَا ... بجِسْميَ مِنْ قولِ الوُشاةِ كُلُومُ

(وعبدالله بن الدمينة) شاعر عربي فحل من قبيلة (خثعم) المعروفة في شمال منطقة عسير أحد (بني عامر بن تيم الله بن مبشر بن أكلب بن ربيعة بن عفرس بن حلف بن أفتل وهو خثعم). واشتهر باسم أمه (الدمينة) بنت حذيفة من بني سلول من أحد قبائل محافظة «بيشة ».

لم يعرف تاريخ ولادته ووفاته وإنما عاش ومات خلال القرن الثاني الهجري متنقلا في أرض الجزيرة العربية من (صنعاء) إلى (العراق) وما بين ذلك .. وأشهر من اتأل به وامتدحه (معن بن زائدة الشيباني) من رجال الدولتين الأموية والعباسية ومن أجواد العرب والقادة المذكورين بالبأس والنجدة .. وكان فارساً شجاعاً .. وشاعراً غزلاً جميل الشكل قالت فيه صاحبته (أميمة) :

أيا حسن العينين أنت قتلتني ... ويا فارس الخيلين أنت شفائيا

وكانت متصفا بالكرم حيث قال:

أبيت خميص البطن غرثان جائعاً ... وأوثر بالزاد الرفيق على نفسي

وأفرشه فرشي وأفترش الثرى ... وأجعل مس الأرض من دونه كبدي

وقال:

ولم أبخل على ضيفي وجاري ... بغالي ما أفيد ولا الرخيص

وكان مطبوعاً على الغيرة والأنفة، أنكر على إحدى زوجاته (حمّاء) صلتها بشخص يدعي (مزاحم بن عمرو السلولي) فقتله وقتلها وابنتها منه.. وسجن على أثر ذلك ثم هرب وتغرّب.. حتى إذا ما أدركه الأجل عاد إلى دياره.. حيث هجم عليه (مصعب بن عمرو) ابن أخي القتيل وطعنه في سوق (العبلاء في (تبالة) وألقاه قتيلا.. وكان كعادة قومه آنذاك.. مغيرا فاتكا.. يصف نفسه بقوله:

جنته الغوالي بعد حين ولاحه ... شموس لألوان الرجال صهوب

وطول احتضان السيف حتى بمنكبي ... أخاديد من آثاره وندوب

وأرجاف جمع بعد جمع وغابة ... صباح مساء للجنان رعوب

ولذلك كان نزيل سجون حيث يقول:

ذكرتك والحداد يضرب قيده ... على الساق من عوجاء باد كعوبها

فقلت لراعي السجن والسجن جامعٌ ... قبائل من شتى وشتى ذنوبها

ألا ليت شعري هل أزورن نسوة ... مضرجة بالزعفران جيوبها

وقال :

وإنا لن نصاحب ركب قوم ... ولا أصحاب سجن ما حيينا

فيختلطوا بنا إلا افترقنا ... عليهم بالسماحة مفضلينا

ومن أسماء الأماكن التي وردت في قصائده وتدل على انتمائه إليها قوله في (بيشة) ممتدحا (معن بن زائدة):

لولا رجاؤك لم أسر من (بيشة) ... عرض (العراق) بفتية ورواحل

وقال عن (تثليث) متغزلا في محبوبته :

ولو أن أمّ الغمر أمست مقيمة ... بتثليث أو بالخط خط عمان

تمنّيت أن الله جامع بيننا ... بما شاء في الدنيا فملتقيان

وقال عن وادي (هرجاب) من الروافد الرئيسة لوادي (بيشة) الكبير:

سدر نواعم من هرجاب أو دُلح ... بالمستطيل على أفيائه العشب

وذكر (راحة سنحان) و(بدر الجنوب) ووادي (جناب) في قوله:

راح للعين بأعلى راحة ... لجناب حبّذا ذاك البلد

فشرى بدر فجنبي مرمر ... ثم أدنى عهد من كنا نود

وقال عن (هرجاب) :

نواعم أوراق المصيف وترتوي ... بأملح من أعطان هرجاب ناطف

وهو في اغترابه بين اليمن جنوباً والعراق شمالاً ، يحن إلى دياره ورياحها وكثبانها ورمالها وأراكها ودوحها وسدرها وغضاها فيقول :

تهيج عليّ الشوق بعد اندماله ... يمانية علوية وجنوب

أحنّ إلى الرمل اليماني صبابة ... وهذا لعمري لو رضيت كثيب

فأين الأراك الدوح والسدر والغضي ... ومستخبر ممّن تحب قريب

ويفخر بقومه (خثعم) قائلاً :

وخثعم قومي ما من الناس معشر ... أعم ندى منهم وأنجى لخائف

ويقول :

وإنك فخرت بغير شيء ... تردّ به حديث المبطلينا

فإن لخثعم آيات نعمي ... أمارات الهدى نوراً مبينا

ويقول:

بأن الحي خثعم غادرتهم ... كايلاً حدهم متضعضعينا

كان ما تقدم من قراءتنا لديوان هذا الشاعر الفحل والذى حققه الأستاذ : (أحمد راتب النفّاخ) أصدره عام ١٣٧٨هـ بمقدمة الأستاذ محمود محمد شاكر في سلسلة (كنوز العرب).

وكفانا غوصا في بحر التاريخ .. لنري هذا الوادي الذى تغنى به الشعراء والعشاق على مر الزمن قد حباه الله في هذا العهد الزاهر كثيراً من العطاءات الخيرة.

حقا .. إن مدينة بيشة مدينة غناء .. تعالوا معنا نستكشف أسرار بيشة الغناء..؟؟!!

بيشة تشبه مصر .. فبيشة من الأودية الجميلة المغطاة بأعداد ضخمة من أشجار النخيل ، والمجري المائي هو (نيل بيشة) الذي تصب فيه مياه أمطار جبال الحجاز وعسير حيث يقطع الوادي الإقليم من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ويدعي بعض (على سبيل المبالغة بأن مياه وادي بيشة تستمر في الجريان إلى أبواب بغداد).

وقد تحدث المؤرخون العرب والأجانب عن أسواق بيشة القديمة ونشاطها التجاري ومما قاله (ابن بلهيد) في صحيح الأخبار قوله عن بيشة:

وقراها كثيرة ، وبها سوق عظيم يجتمعون فيها آخر يوم الأربعاء في الروشن ويسمى سوق الربوع ثم يبتدئون صباح الخميس بسوق نمران ويسمى سوق الخميس ويستمرون إلى منتهى ذلك اليوم.

وهذا الموضع باق إلي هذا العهد.

ومما قاله حمد الجاسر عن سوق نمران في كتابه (مع الشعراء) : يقام في بيشة سوق تجاري في كل أسبوع في يوم الخميس يجتمع فيه أهل تلك النواخى من بادية وحاضرة ، وهو أعظم أسواق الجزيرة العربية التجارية لتوسط بيشة بين الحجاز ونجد واليمن ولوقوعها في ملتقى طرق جنوب الجزيرة وشرقها وشمالها وغربها ويضاف إلى هذا خصوبة أرض بيشة واعتدال جوها.

ونظرا لأهمية بيشة الجغرافية، وتوسطها بين أقاليم نجد والحجاز وعسير بالإضافة إلى شهرة واديها وخصوبة الأراضى ووفرة المياه .. فقد كانت منذ القدم محل استيطان مرغوب ، واستوطنت في وادي بيشة الشهير العديد من القبائل العربية وهي :

قبائل معاوية ـ قبائل بنى سلول ـ قبائل المحلف ـ قبائل الرمثين ـ قبائل أكلب ـ قبائل بني منبه ـ قبائل بالحارث ـ قبائل بني واهب.

ولقد كان يسكن بيشة في الجاهلية من العرب : خثعم وهلال ، وسواءة بن عامر

بن صعصعة ، وسلول ، وعقيل ، والضباب ، وقريش .. ووادي بيشة يقارع وادي بيش، فوادي بيش يصب في تهامة غربا ، ووادي بيشة شرقا ، وأعراب أهل تلك الناحية يسألون الرعاة:

أين رعيتم .. ؟؟

فيقولون : ضحينا في وادي بَبُش ، وعشينا في وادى بيشة ، تجتمع سيول بيشة بسيل وادي رنية وتنتهى في موضع يقال له (رغوة) غربي الهضب وقد أكثر الشعراء من ذكر بيشة بله لبيد ، قال السمهري :

وأنبـئت ليلى بالغـريين سلّمت	عليّ ودوني طخفـةٌ ورجـامُـهـا
فـإن التي أهدت على نأي دارها	سـلامـا لَمَـردُودٌ عليـهـا سَـلاَمُـهَـا
عـديدَ الحصى والأثل من بَطْن بيشةِ	وطَرفـائهـا مـادام فـيـهـا حـمـامـهـا

وسنورد قصة (المعمل) الذي ذكر أنه لبنى هاشم في بيشة. والمعمل قرية من أعمال مكة لبني هاشم ببيشة وكان أول أمر المعمل أنه كان بين سلول ، وخثعم فيحفر السلوليون ويضعون الفسيل فيجىء الخثعميون وينتزعون الفسيل ويهدمون ماحفر السلوليون ويفعل مثل ذلك الخثعميون فيزيلون الفسيل ولايزال بينهم قتال وضرب فكان ذلك المكان يسمي مطلوبا .. فلما رأى ذلك العجير شاعر بنى سلول تخوف أن يقع بين الناس شر أخطر من ذلك فأخذ من طينته ، وماء عذب فقال له هشام :

كم بين الشمس وبين هذا الماء ؟ فقال أبعد ما يكون بعده ، قال : فأين الطين ؟ قال : في الماء وأخبره بماء جوف بيشة ، وبيشة من أعمال مكة وأخبره بما في بيشة من أودية ، ماؤه من النخل الفسيل وأخبره أنه يحتمل نقل عشرة آلاف فسيلة في اليوم الواحد فأرسل هشام إلى أمير مكة أن يشتري مائتي (زنجي) ويجعل مع كل زنجي امرأته ثم يحملهم حتى يضعهم بمطلوب وينقل إليهم الفسيل فيغرسونه بمطلوب ، فلما رأي الناس ذلك قالوا إن مطلوبا معمل يعمل فيه فذهب اسمه المعمل إلي اليوم ، قال العجير السلولي :

لا نوم للعين إلا وهي سـاهرة	حتى أصيب بغيظ أهل مطلوب
إن تشتموني فقد بدلت أيكتكم	زرق الدجاج وتجفاف اليعاقيب
قد كنت أخبرتكم أن سوف يعمرها	بنو أميـة وعـداً غيـر مكذوب

(الأيكة) جماعة الأراك وذلك أنه نزع الأراك ووضع مكانه الفسيل وآل عاقب جمع يعقوب وهو الحجل تجفاف جفافه وحركته فوق البيض ، أما أكلب فبطن من خثعم من العرب القحطانية وقبائل خثعم أربع هم :

شهران ، وناهس ، وكود ، وأكلب .. وكلهم قحطانيون ، أكلب بن عفير بن يحتاج حلف بن خثعم بن نميار بن براشى بن عمر بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان .. أيضا أكلب بطن من زهران وأكلب أيضا من ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان جاور القحطانيين فانتسب إليهم.

(ومطلوب) .. اسم موضع بوادي بيشة عمر في أيام هشام بن عبدالملك بن مروان وسمي (المعمل) وذكر في المعمل ، وقال رجل من بنى هلال يقال له رياح:

يا أثلَتيْ بطن مطلوب هَوِيُكما	لو كانت النفس تُدنى من أمانيها
واليكما نَذر بالناس لا رَحِمٌ	تدنيه منهم ولا نُعْمىَ يجازيها
محفوفتين بظل الموت أشرفتا	في رأس رابية صعب تراقيها
كلتاهما قُضُب الريحان بينهما	فاعتمّ بالناشق الرّيّان ضاحيها
تَنْدى ظلالكما ، والشمسُ طالعةٌ	حتى يواريها في الغور راعيها
من يُعطه الله في الدنيا ظلالكما	يَبْني له درجات عالياً فيها

قال الأصمعي : ومن مياه نَخَلَى مطلوبٌ ، وأنشد :

ولا يجيء الدّلوُ من مطلوب	إلا بشقّ النفس واللّغوب

قال اليمامي لصاحب مطلوب وهو عمرو بن سمعان القُرَيظي :

عمرو بن سمعان علي مطلوب	نعم الفتى وموضع التحقيب

يعني ما تخلف من أمتعة ، قال محمد بن سلام : حدثني أبو العراف قال : كان العجير السلولى دل عبدالملك بن مروان على ماء يقال له مطلوب كان لناس من خثعم وأنشأ يقول :

لا نومَ إلا غــــرَار العين ســــاهرة إن لـم أُرَوِّعْ بغـــــيظٍ أهلَ مـطلـوب

إن تشــتـمـوني فـقـد بَدَّلْتُ أيكتكم زَرْقَ الدجـاج وتجـفـافَ اليـعـاقـيب

قـد كُنْتُ أخبـرتكـم أن سوف يعـمـرها بنو أُمَـيَّـة ، وعـداً غـيـر مكذوب

فبعث عبدالملك فاتخذ ذلك الماء ضيعة فهو خيار ضياع بنى أمية .

استعراض لقبائل بيشة

تبالة :

وتبالة : بالفتح ، تبالة الحجاج بن يوسف الثقفي بلدة مشهورة بالمنطقة الجنوبية.

قال المهلبي :

تبالة في الإقليم الثاني ، عرضها تسع وعشرون درجة ، وأسلم أهل تبالة وجُرَش من غير حرب فأقرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في أيدي أهلهما على ما أسلموا عليه ، وجعل على كل حالم ممن بهما من أهل الكتاب ديناراً ، واشترط عليهم ضيافة المسلمين ، وكان فتحها في سنة عشر ، وهى مما يضرب المثل بخصبها ، قال لبيد :

فـالضَّـيف والجـارُ الجنيبُ ، كـأنما

هَبطَا تَبَـالةَ مُـخْـصـباً أهضـامُـهـا

(وفيها قيل أهونُ من تبالة على الحجاج) قال أبو اليقظان : كانت تبالة أول عمل وليه الحجاج بن يوسف الثقفى ، فسار إليها فلما قرب منها قال للدليل : أين تبالة..؟؟ وعلى أي سَمْت هي .. ؟؟

فقال :

ما يسترها عنك إلا هذه الأكمة ، فقال : لا أراني أميراً على موضع تستره عني هذه الأكمة ، أهون بها ولاية .. !! وكر راجعاً ولم يدخلها ، فقيل هذا المثل .. وبين تبالة ومحافظة بيشة حوالى ٤٠كم .. وقد قيل إن تبالة :

سميت بتبالة بنت مكنف من بني عمليق ، وزعم الكلبي أنها سميت بتبالة بنت مدين بن إبراهيم ، ولو تكلف متكلف تخرج معانى كل الأشياء من اللغة لساغ أن يقول: تبالة من التبل وهو الحقد ..

وقال القتال :

وما مُغْزِلٌ ترعى ، بأرض تبالة

أراكاً وسِدْراً ناعماً ما ينالُها

وترعي بها البَردين ثم مقيلها

غَياطل ، مُلتجٌ عليها ظلالُها

بأحسن من ليلى ، وليلى بشبهها

إِذا هُتكَتْ في يوم عيد حجالُها

وينسب إليها أيوب سليمان بن داود بن سالم بن زيد التبالي.

الخلصة من آثار تبالة :

الخلصة في اللغة : نبت طيب الريح يتعلق بالشجر له حب كعنب الثعلب وجمع الخلصة خلص :

وهو بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة وهو صنم لهم فأحرقه جرير بن عبدالله البجلي حين بعثه النبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل : كانوا يلبسونه القلائد ويعلقون عليه بيض النعام ويذبحون عنده وكان معناهم في تسميتهم له بذلك أن عباده والطائفين به خلصةٌ .. وكان (ذو الخلصة) بيتاً تعبده بجيلة وخثعم والحارث بن كعب وجرم وزبيدة والغوث بن مر بن أد وبنو هلال بن عامر ، وكانوا سدنته بين مكة واليمن بالعبلاء على أربع مراحل من مكة.

وقد قال المبرد :

موضعه اليوم مسجد جامع يقال لها العبلات من أرض خثعم ، وقال أبو المنذر : ومن أصنام العرب ذو الخلصة وكانت مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج ، وكانت بتبالة وسدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر .. وكانت تعظمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب ومن هوزان ففيها يقول خداش بن زهير العامري لعثعث بن وحشي الخثعمي في عهد كان بينهم فغدر بهم :

وذكـــــرتـه بـالله بـيـنـي وبـيـنـه ومــا بيننا من مـــدّة لو تذكـــرا

وبـالمروة البــيــضـــاء ثم تبـــالة ومــجلســة النعـــمـان حـيث تنصـرا

فلمـا فـتح رسـول الله صلى الله عليـه وسلم مكة وأسلمت العرب ووفـدت عليـه وفـودها قدم عليـه جرير بن عـبدالله مسلماً فقـال له : يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة ؟؟ فقال : بلي .

فوجهـه إليه فخرج حتى أتي بنى أحمس من بجيلة فسار بهم إليه ، فقاتلتـه خثعم وقتل مائتين من بـني قحافة بن عامر بن خثعم وظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان ذي الخلصة وأضرم فيه النار فاحترق .. قالت امرأة من خثعم :

وبـنو أُمـــامـــة بـالوليّـــة صُـــرّعـــوا

شَـــمْـــلاً ، يعـــالج كلّهم أنبـــوب

جـاؤوا لبـيـضـتـهم ، فـلاقـوا دونهـا

أسـداً يقبّ لدي السـيـوف قـبـيـبـا

قـــسم المذلّة بين نســـوة خـــثـــعم

فـتـيـان أحـمس قـسـمـةً تشـعـيـبـا

وقد قـيل بأن ذا الخلصة اليوم عـتبة باب مسجد تبالة .. قال : وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قـال : (لا تذهب الدنيـا حتى تـصطكّ أليات نسـاءِ بني دوس على ذي الخلصة يعبدونه كما كانوا يعبدونه).

وفي أخبار امرىء القيس : لما قتلت بنو أسد أباه حجراً وخرج يستنجد بمن يعينه على الأخذ بثأره حتى أتى حمير فالتجأ إلى قيل منهم يقال له مرثد الخير بن ذي جدن الحميري فاستمده على بنى أسد ، فأمده بخمسمائة رجل من حمير مع رجل يقال له قرمل ومعه شذاذ من العرب ، واستأجر من قبائل اليمن رجالا فسار بهم يطلب بني أسد ، ومر بتبالة وبها صنم للعرب تعظمه يقال له ذو الخلصة فاستقسم عنده بقداحه ، وهى ثلاثة : الآمر والناهي والمتربص ، فأجالها فخرج الناهي ثم أجالها فخرج الناهى ثـم أجالها فخرج الناهي .. فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال : مصصت بظر أمك لو قـتل أبوك مانهيتني .. فقال عند ذلك :

لـو كـنـت يـا ذا الخـلـص المـوتـورا

مـثــــلي وكــان شـــيــخك المقـبــورا

لــم تنــه عــن قـــتل العــــداة زورا

ثم خرج فظفر ببني أسد وقتل قاتل أبيه وأهل بيته وألبسهم الدروع البيض محماة وكحلهم بالنار وقال في ذلك :

يا دار سلمى دارســـاً نؤيهــا   بالرمل والجبـتين من عــاقل

وهى قصيدة .. فيقال : إنه ما استقسم عند ذي الخلصة بعدها أحد بقدح حتى جاء الإسلام وهدمه جرير بن عبدالله البجلي وفى الحديث الشريف : (أن ذا الخلصة سيعبد في آخر الزمان ، قال : لن تقوم الساعة حتى تصطفق أليات نساء بني دوس وخثعم حول ذي الخلصة).

بنو سلول :

قبيلة عرفناها من شهران وهم حضر وأهل نخل وجدار فيهم مكارم أخلاق جارهم عزيز.. ناس يعملون في التجارة ولهم سلوم جميلة للضيوف وللجار والروشن شيوخه الصعارية من شهران وشهران قحطانيون وإن كان سابقنا عنهم في التاريخ شيء ما ندري عنه .. كما أنا نعرف أن معاوية من المحلف.

وحدود بلاد شهران من بيشة النخل الرقيطاء والدحو بلاد بن شكبان وهو أقدم من غيره من شهران في بيشة وقد ذكر عنه الحفظي شاعر بن عايظ في قصيدته التي أرسلها إلى الرياض عنوانها (أم عبد) في سنة ١٣١٦هـ.

فسلم على قبر بن شكبان سالم   لقد كان قدماً قادماً كل سيدي

النقيع :

بلاد حائطة بها النخيل ويحفها الوادي من الجنوب وعلاماتها من الشمال جبال أعلاها جبل يسمى جمعور وهي وبلاد لها هيبة ولها سمعةٌ ولأهليها جميلةُ وشيخها هو: عون بن محمد بن مسعر.

الخرسعة :

بلاد صغيرة تحت جبل من الشرق وسكانها المنيع من أكلب ولم نعرف عنها إلا ما قاله الشاعر في زيارة العيد:

سلام يا أهل الخرسعة يا نار يا موشاه

أزين لنا وأزين لكم كل أربعة في شاه

الشقيقة :

بلدة قاسم بينها وبين جبل أبو سالم فمن الشرق سعديه ، ومن القبلة منيعة ، وهى قرى وكل بلاد فيها حقها من رجالها والديار من أهلها لا من كبرها يقول الشاعر الهذية ابن شيبان الدوسري :

لا تحسب الدار زينتها مبانيها ترى أصلها يا فتى طين وجدراني

ترج :

تَرْجٌ : جبل بالحجاز كثير الأسد ، قال أبو أُسامة الهذلى :

ألا يا بُؤس للدهر الشَّعوب لقد أعيا على الصنع الطبيب

يحط الصخر من أركان ترج وينشعب المحبُّ من الحبيب

وهذا شاهد على أنه جبل.. وترج بالقرب من بيشة وهي قرية في واد قال أوس بن مدرك :

تحدّث من لاقيت أنك قاتلي قراقر أعلى بطن أمك أعلم

تبالة والعرضان ترج وبيشة وقومي تيم اللات والاسم خثعم

وقالت أخت حاجز الأسدي ترثيه :

أحيٌّ حاجزٌ أم ليس حيًّا فيسلك بين خندف والبهيم

ويشرب شربة من ماء ترج فيصدر مشية السبع الكليم

وترج واد إلى جنب تبالة بالمنطقة الجنوبية وهناك أُصيب بشر بن أبي خازم الشاعر في بعض غزواته فرماه نعيم بن عبد مناف بن رياح الباهلي الذي قيل فيه أجرأ من الماشي بترج ، فمات بالردّة من بلاد قيس ، فدفن هناك ويحتمل أن يكون المراد بقولهم أجرأ من الماشي بترج الأسد لكثرتها فيه قال :

وما من مخدر من أسد ترج ينازلهم لنابيه قبيب

يقال : قب الأسد قبيباً إذا صوت بأنيابه.. ويوم ترج : يوم مشهور من أيام

العرب ، أسر فيه لقيط ابن زرارة ، أسره الكميت بن حنظلة فقال عند ذلك :

وأمكنني لسـانـي مـن لقـيط   فـراح القـوم فـي حلق الحـديد

الجنينة :

بلاد بني سعد بلاد حضرية وبدوية، وهي من قري بيشة من الشرق وهي على طرف وكان البدو أيام المصايف إذا احترت الشمس بعد ما يتخلصون من الوسمي والربيع في نجد وغيرهم ينزلون في أطرافها على ماء يقال له (ثملا وعقيلان) لأن وادي بيشة فيه حموض وأشجار وعقيلان عدود وثمد، وقد قال الشاعر بما يثبت أن الجنينة حضرية بدوية:

انص الجنينه يا مظنة فـؤادي   تلقى علوم البدو فيها تواكيد

وهي لبني سعد وشيوخها يقال لهم آل منفور وينزلون جنوب الديره وشماليها وينزل معهم أشخاص من بني هزر كزايد بن عريدة وأولاده وسالم بن عفيص وأولاده وحزام الفرد من الجبرة وبالعهد الذي عرفناهم فيه قبل الكمام بما أنها بلاد على طرف ويهددها العدو من كل جهة كانت لهم عناية بالخيل كبيرة حيث لا تقل الخيل عندهم عن اثني عشر خيالاً وكان لهم بادية قوية عند الدفاع وهم بنو سعد وشيخهم العواجي وموقع البلاد موقع لائق للبداوة والحضارة قبلى الديرة نخيل ومزارع والوادي وشرقيها جبل معترض كبير يسمى خشيم الذيب.

كانوا إذا رأوا الهامل الناقة المهملة الذي ليس عندها من يرعاها ذبحوها وتقاطعوا لحمها (ياحافر حفرة السوء طحت فيها).

كان سعود بن حمدان رحمه الله عنده ناقة هزلة وأظهرها مع البدو وحتى تكملت الوسمي والربيع فلما جاء وقت الصيف وجاء البدو إلى الجنوب من نجد نتعت تبغى ديارها التي ربت فيها فلما فقدها الراعي طلبها على الأثر وكان صاحبها في أول القيظ في النخل هو وعياله فلما استيقظوا نصف الليل إلى الناقة واقفة عليهم نحن وإذا عليها أكبر من رأسها شحمها ولم يعرفوها ففرحوا فرحاً شديداً بأنها هامل وذبحوها ودفنوا الدم والفرث والجلد واللحم خبوه وعندما أصبحوا إلى البدوي وديع الناقة على أثرها حتى أدخلها عليهم ، فسلم عليهم وقال سبقتني الناقة إليكم فقالوا له : وما هي الناقة ؟ قال ناقتكم فلانة فتبدل سرورهم بالكدر وتندموا كل الندم ياحافر حفرة السوء لأخيك طحت فيها ، وكانت لها حاجة عظيمة .

وفي ذات يوم ظهر بعير (مقعد الرويسي) من النخل يرعى قريب البلاد فشافوه الجماعة وصاحوا الهامل الهامل فلما وصلوه إلى البعير بعير مقعد يعرفونه فنوخوه واجتمعوا عليه ولفتوا رأسه على ظهره وكان صاحب البعير معهم بل متأخر فلما لحق بهم قالوا له تكفى يامقعد ما عندنا سلاح نذبح الناقة فظن أنها ناقة وهم مجتمعون على البعير ولم ير منه غير مضرب السكين فضربه مقعد في نحره فلما مات البعير ذهبوا عنه إذا بالناقة بعير مقعد فصعق مقعد يرثي بعيره ولا يعرف صاحبه واحد حتى ينتقم منه .

ومع التقدم الحضاري لمملكتنا الغالية الذي شمل منطقة بيشة أسوة ببقية مناطق المملكة العربية السعودية ، وازدهار التجارة وانتشار الزراعة في هذه المنطقة وفد إليها العديد من أبناء القبائل الأخرى المجاورة مثل : غامد وزهران وبلقرن وسبيع وقحطان والدواسر .

الموقع والتضاريس :

تقع منطقة بيشة بين خطي عرض ٢٠ - ١٩ ، ١٥ - ٢٠ شمالاً وخطي ٤٠ - ٤٣ شرقاً .

تعدّ محافظة بيشة أول إمارة في المنطقة الجنوبية والغربية .. حيث تأسست عام ١٣٣٦هـ وكان أميرها آنذاك المرحوم الشيخ عبد الرحمن بن ثنيان .

وقد تطورت محافظة بيشة إدارياً خلال السنوات الماضية ضمن النمو الكبير الذي تشهده المنطقة في مختلف المجالات وكان لاهتمام سمو أمير منطقة عسير صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل الفضل في مواكبتها للتقدم الذي حظيت به المحافظات الأخرى... ويتبعها مراكز :

(تبالة ، النقيع ، الحازمي ، صمخ ، البهيم ، الجعبة ، الثنية ، الجنينة)

وتغطي المنطقة الحدود الشمالية الشرقية لمنطقة عسير ضمن هضبة بيشة ويحدها شمالاً رنية ثم مكة المكرمة وجنوباً الحدود الإدارية لمحافظتي خميس مشيط والنماص وشرقاً محافظة تثليث وغرباً محافظة بلقرن ومنطقة الباحة .

ومحافظة بيشة عبارة عن هضبة داخلية تتصل بمرتفعات السراة من الناحية الغربية وتتدرج في الانخفاض كلما اتجهنا شرقاً .. ويجتاز المحافظة عدد من الأودية الكبيرة مثل وادي بيشة الذي يبلغ طوله ٤٥٠ كم ، وعلى طول وادي بيشة أودية كبيرة رافدة هي :

أودية ابن هشبل ووادي ترج ووادي هرجاب وتشكل هذه الأودية الثلاثة واديا كبيرا يطلق عليه (وادي بيشة) من أكبر أودية السراة الشرقية على الإطلاق ، وهو واحد من أكبر أودية الجزيرة العربية ، ينبع من سفوح جبال بلاد رفيدة في أقصى نقاطها الجنوبية الغربية ، ويسمى بوادي بيشة ابن سالم طوال اختراقه لبلاد رفيدة نسبة إلى (بن سالم) زعيم بلاد رفيدة ، وروافده الكبرى في بلاد رفيدة هي المربع والصوح والصفق ووادي المراغة ووادي عنقة والأخيران من الأودية الكبرى حيث يلتقيان بوادي بيشة ابن سالم عند بلدة جرش حاضرة عسير التاريخية وتكوّن هذه المدينة التاريخية ، شبه جزيرة تحيط بها الأودية الثلاثة ، وعند حافة الطرف الشمالي لهذه المدينة تلتقي هذه الأدوية وتصب في مجرى (وادي بيشة) الذي سيبدأ في حمل اسم (وادي بيشة بن مشيط) نسبة إلى مشيط زعيم شهران ، وذلك بدءاً من قرية **(مسيحل)** وهي الحد الفاصل بين بلاد رفيدة القحطانية وبلاد شهران .

وفي شمال خميس مشيط بقليل تلتقي بوادي بيشة أودية أخرى كبيرة هي :

وادي تندحة ووادي عتود ووادي أبها ، وعند التقاء وادي بيشة بوادي شهران ، والذي أصبح يعُرف منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي على وجه التقريب **(بوادي بن هشبل)** نسبة إلى ابن هشبل أحد زعماء قبيلة شهران عند بلدة واعر ليصبح اسمه بدءاً من هذه النقطة يحمل **(وادي بيشة النخل)** ومن هنا تتعددروافده وتتسع مساحته حيث تبلغ عند محافظة بيشة أوسع مدى ، والذي يصل إلى ١٠٠٥ متر ، ومن أهم روافد وادي بيشة ، وادي ترج الذي يبدأ من مرتفعات السراة شرقي تنومة ويلتقي بوادي بيشة عند بلدة الحيفة على بعد ٢٥ كم جنوب محافظة بيشة ، ووادي تبالة ويصب في وادي بيشة عند قرية الصبيحي ، ووادي هرجاب ، وهو من الأودية الكبرى في بلاد بني واهب بشهران، ويصب في وادي بيشة بالقرب من قرية الحيفة ، ويبلغ طول وادي بيشة من منابعه إلى نقطة اختفائه في الرمال الفاصلة بين بيشة ووادي الدواسر حوالي ٤٥٠ كيلو متر ..

المناخ :

نظراً لوقوع مدن وقرى بيشة على ضفاف الوديان ولأن فوارق الارتفاع فيها قليلة نجد تشابها في مناخ مدن المنطقة ، حيث يبلغ متوسط درجات الحرارة في مدينة بيشة (٢٤,٤) درجة مئوية والمناخ فيها حار إذا قورن بمناخ منطقة جبال عسير .. أما الأمطار فمعدلها السنوي ١٠٨ ملم وتسقط في فصل الربيع وبصفة عامة يزداد الجفاف والحرارة

كلما اتجهنا شرقاً عن مدينة بيشة لأن انحدار الهضبة يتجه شرقاً وتعتمد منطقة بيشة اعتماداً كبيراً على مياه الوديان كما تكثر المياه الجوفية في المنطقة .

السكان :

يتميز مجتمع منطقة بيشة بأنه مجتمع زراعي رعوي تغلب عليه السمات الرعوية كما يمارس سكانها التجارة .. ومن واقع دراسة ميدانية أجريت مؤخراً اتضحت الخصائص التالية :

- التفاوت الكبير في حجم القرى وكبر حجم التجمعات السكانية .
- بلغ عدد القرى ٢١٢ قرية ، بها حوالي ٣٠٠٠٠ أسرة وعدد سكانها (١٤٧٨١٥) نسمة بنسبة تقدر بحوالي ٣,٢٪.

الخصائص العمرانية :

تمتاز بيشة بتاريخها القديم وانتشار الحضارة فيها منذ زمن بعيد لكونها ملتقى طرق تربط مناطق الجنوب بالشمال وبالمنطقة الشرقية . وكانت مدينة بيشة ملتقى القوافل التي كانت تجتاز الجزيرة العربية بين اليمن والشام ، وتمتاز قراها بطراز موحد وأغلب مبانيها من طابقين بطراز منسق جميل يحافظ على النسق القديم ، أما في المدن الرئيسية فقد ظهرت الأبنية على شكل عمارات حديثة متعددة الطوابق .

شهدت منطقة بيشة .. كمثيلاتها من مناطق المملكة المختلفة .. مدنها وقراها وهجرها .. انطلاقة عظيمة في كافة المجالات خلال السنوات القليلة الماضية وبصفة خاصة في مجال التعليم والتجهيزات الأساسية وذلك بفضل الله ثم بجهود حكومتنا الرشيدة بقيادة خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين وجهود المسئولين وحرصهم الدائم على رفع مستوى المواطن السعودي حضارياً وثقافياً وتقنياً . هذا فضلاً عما يوليه صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل من اهتمام بمنطقة عسير عامة ومنطقة بيشة خاصة مما كان له الأثر الفعال في دفع عجلة التنمية إلى الأمام من أجل تطوير المنطقة .

في مجال التعليم

تعليم البنين :

كان التعليم في بيشة قديماً بمثابة كتاتيب في بعض المساجد لتعليم القرآن الكريم وبعض علوم الدين .. وفي عام ١٣٥٤هـ بدأ التعليم النظامي بافتتاح المدرسة السعودية

الابتدائية ثم سرعان ما انتشرت المدارس الحكومية حتى غطت المحافظة والقرى والأرياف وسفوح الجبال وجميع هجر المنطقة .

والتعليم في بيشة شأنه في ذلك شأن التعليم في مناطق التعليم بالمملكة ، في تطور مستمر كماً وكيفاً بفضل الله ثم بفضل ما توليه حكومة خادم الحرمين الشريفين من عناية ورعاية .. ومحافظة بيشة التعليمية هي إحدى الإدارات التعليمية بالمنطقة الجنوبية وتشرف على (٢٥٤) مدرسة نهارية ، كما بلغ عدد المدارس الليلية (٣٠) مدرسة بها عدد (٤٥) فصلا .

تعليم البنات :

تأسست إدارة التعليم بمحافظة بيشة للبنات سنة ١٤٠٣هـ حيث يغطي تعليم البنات ببيشة من محافظة تثليث التي تبعد ٣٦٠ كم حدود وادي الدواسر وحدود منطقة الباحة غرباً بحوالي ١٥٠ كم وتعليم البنات لم يكن أقل حظاً من تعليم البنين فقد قفز تعليم الفتاة قفزات رائعة في محافظة بيشة بشكل يدل على حرص حكومتنا الرشيدة على التعليم ونشره .

وقد افتتحت أول مدرسة ابتدائية لتعليم البنات ببيشة عام ١٣٨٣هـ ثم سرعان ما انتشرت المدارس على اختلاف مراحلها الابتدائية والمتوسطة والثانوية .. أما عدد مدارس الطالبات فقد بلغت المدارس (٢٤٢) مدرسة ..

النشاط الزراعي :

حققت الزراعة بالمملكة خلال السنوات الأخيرة نهضة سريعة وملموسة .. فقد أصبح القطاع الزراعي من أكثر القطاعات الإنتاجية نمواً وإطراداً .. وخير شاهد على ذلك أن المملكة أصبحت على مستوى العالم تحتل من المراكز الأولى وخاصة في إنتاج القمح ..

كذلك جميع الدلائل تشير إلى أن زراعة النخيل آخذة في الازدهار بالمملكة باعتبارها منتجا حيويا .. حيث بلغ حوالي ١٣ مليون نخلة تنتج ٥٠٠ طن سنويا وتشتمل على ٥٠٠ صنف .

ومحافظة بيشة تزرع أكثر من ثلاثة مليون نخلة وتنتج سنوياً ١٣٣ ألف طن من التمور ، كما تشتهر بيشة بأجود أصناف التمور وخاصة الصفري - والبرني - والشكل - والمقفزي - والقسب . . وقد بلغ مقدار الدعم السخي الذي تقدمه الدولة لمزارعي النخيل بالمنطقة مبلغاً قدره ٣٢,٨ مليون ريال .

ولا شك أن النهضة الزراعية التي تشهدها المملكة حاليا لم تأت من فراغ وإنما تحققت بعد تخطيط واعٍ وجهود جبارة كرستها حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله في إطار الاستراتيجية التي تتبناها لإنشاء قاعدة إنتاجية تعمل على تنويع مصادر دخلنا الوطني كي نجنب اقتصادنا مخاطر الاعتماد على مصدر واحد للدخل .. ومن أجل هذا قامت الحكومة بتنمية الموارد المائية إذ تم إنشاء أكثر من ٢٠٠ سد خلال السنوات العشر الماضية ..

وكان لمحافظة بيشة نصيبها في إنشاء السدود فقد تم إنشاء سد وادي بيشة العملاق أكبر سدود المملكة وثاني سد في الشرق الأوسط .. ومدينة بيشة كغيرها من بقية مناطق المملكة المختلفة تشهد نهضة زراعية كبيرة بفضل الله ، ثم بفضل الداعم المتوصل من حكومة خادم الحرمين وولي عهده الأمين وهي تحتل الآن أكثر من ثلاثة مليون نخلة تختضنها مدينة بيشة الخضراء .

عرفت بيشة منذ القدم بخصوبة أرضها وكثرة نخلها وأشجارها وقد ورد ذكر ذلك في كثير من كتب الأدب والتاريخ .. بحيث إن شهرة هذه المنطقة جاء من نخلها الوفير الحلو الطعم .. والذي يتطاول بعنفوان على جانبي وادي بيشة العملاق ، والذي يعد بحق من أكبر أودية المملكة العربية السعودية .

وتعيش بيشة اليوم نهضة زراعية هامة بحيث أصبح عدد أشجار النخيل وحدها أكثر من ثلاثة ملايين نخلة .

سد الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود

وفي الوقت الذي يعدّ سد أسوان أكبر سد ركامي في الشرق الأوسط فإن سد خادم الحرمين الشريفين يعد أكبر سد خرساني في الشرق الأوسط وأكبر سدود المملكة العربية السعودية على الإطلاق .

وقد بدأ العمل في سد خادم الحرمين الشريفين عام ١٩٨٩ميلادي ومن المتوقع الانتهاء من العمل عام ١٩٩٦م.

يقع السد على بعد (٣٥) كيلو متراً جنوب غرب مدينة بيشة .. وسعة السد التخزينية (٣٢٥) مليون متر مكعب حيث تكون بحيرة التخزين أمام السد على مسافة (٢١) كيلو متراً ..وتبلغ مساحة تجميع السيول حوالي (٧٦٠٠) كيلو متر مربع . وطول

منطقة الجميع (٢٢٥) كيلو متر .. وستبلغ كمية الخرسانة في السد (١٤٩,٢٠٠,٠) متر مكعب .. وكمية أعمال الحفر في المشروع (٢٠٢,٩٠٠,٠) كما يبلغ ارتفاع السد (١٠٣) متر وطول السد عند القمة (٥٠٧) متر وطول المفيض (٢٢٥) متر وتصريف المفيض (٥٣٣٨) متر مكعب / الثانية ، وعرض السد عند القاعدة (٧٩,٨٥) متر ، وفي قمة السد يكون عرض الطريق (٦) أمتار . وسد خادم الحرمين الشريفين ببيشة مزود بـ (٦) أنفاق على مناسيب مختلفة لمتابعة أعمال التشغيل والصيانة والرصد لأجهزة المراقبة .. وإجمالي تكلفة هذه المشروع العملاق (٢٩,٧٦٩,٠٥٠) ريال .

أما من ناحية مخارج تصريف المياه من السد فهي كالتالي :

(أ) عدد (٢) ماسورة حديد قطر (٢٨٢) سنتمتر على ارتفاع (٤) أمتار من أرضية الوادي ، كل ماسورة مركب عليها بوابتان بوابة في الأمام وبوابة في الخلف .

(ب) عدد (٢) ماسورة حديد قطر (٢٢٥) سنتمتر على ارتفاع (٢٠) متراً من أرضية الوادي ، كل ماسورة مركب عليها بوابة في الأمام وصمام من الخلف .

محتويات السد :

يوجد عدد (٤) بندولات معكوسة لقياس حركة الأساسات .. كما يوجد عدد (٤) بندولات رأسية لقياس حركة جسم السد .. كذلك يوجد عدد (٣١) جهاز لقياس حركة الفواصل .. كما يوجد عدد (٤) ترمومترات بالسد .. أيضاً يوجد عدد (١٠) أجهزة رصد مساحي لقياس الهبوط في الأساسات .

مطار بيشة أول مطار في المنطقة الجنوبية

تحرص حكومة خادم الحرمين الشريفين على توفير الراحة والأمن والاستقرار لكافة مواطني المملكة العزيزة وانطلاقاً من هذا المبدأ ولأن المملكة مترامية الأطراف اهتمت رئاسة الطيران المدني التابعة لوزارة الدفاع المدني وبتوجيهات من صاحب السمو الملكي وزير الدفاع بربط جميع مدن المملكة بمطارات داخلية منها مطار بيشة ..

وفي أواخر عام ١٣٧٣هـ صدرت برقية من جلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية برقم ٣١٠٩٤ وتاريخ٢/١١/١٣٧٣هـ موجهة إلى أمير بيشة (محمد بن هديان) آنذاك يرحمه الله وكان مفادها أن جلالة الملك يطلب إشعاره عما إذا كانت هناك أرض يمكن تأسيس مطار عليها ويستفسر جلالته فيما إذا سبق وأن

نزلت طائرات في بيشة ، وقد جاءت هذه البرقية بناء على رغبة أمير بيشة في دعوة جلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله لزيارة بيشة فأراد جلالته أن يستفسر عن إمكانية هبوط الطائرة لأن بيشة تبعد كثيراً عن الرياض ويصعب السفر بطريق البر آنذاك لوعورته .

وقد أجاب أمير بيشة على البرقية بأنه توجد مساحات طيبة صالحة أن تكون مهبطاً للطائرات ثم أمر جلالته رحمه الله بإرسال مندوبين إلى بيشة للتأكد من المساحات ومعرفة مدى إمكانية هبوط الطائرة وذلك ليتسنى لجلالته قبول دعوة أمير بيشة وأهاليها بزيارته لهم وفعلا تم إرسال مندوبين منهم السيد **(عبد السلام سرحان)** والذي قرر إمكانية هبوط الطائرة في موقع يقع شرق المدينة بجوار جبل صغير يسمى (الرجيمات) وقد أحضرت طائرة من نوع **(داكوتا)** لاختيار الموقع .

وقد هبطت فيه الطائرة بسلام وكان الكابتن في ذلك الوقت **(محمد ناجي)** تركي الجنسية ، وبعد تلك التجربة للمهبط تقرر أنه صالح للهبوط ، وفي عام ١٣٧٤هـ وصل جلالة الملك سعود إلى بيشة على متن طائرة داكوتا وكان الوقت يشارف على الظلام وقت غروب الشمس وقد تمت الزيارة بنجاح تام ولله الحمد .

وبعد هذه الزيارة التي قام بها جلالته يرحمه الله أمر باعتماد إنشاء مطار في بيشة وتسيير رحلات للمنطقة وقد أبرق سمو وزير الدفاع والطيران في ذلك الوقت الأمير : **(فهد بن سعود بن عبد العزيز)** وطلب من أمير بيشة اختيار من يراه مناسبا ليكون وكيلاً للخطوط في بيشة وقد تم اختيار السيد **(موسى العواد)** للقيام بهذه المهمة التي سوف يكون من شأنها سرعة التنقل بين مدن المملكة بيسر وسهولة وقد بدىء العمل بخيمتين واحدة منها مكتب له وواحدة للركاب القادمين والمسافرين ووضع ميزان العفش في ظل الصخرة ليتمكن الموظف من وزن عفش الركاب . وبدأت الرحلات في ذلك العام ١٣٧٤هـ وبهذا يكون مطار بيشة أول مطار في المنطقة الجنوبية لوجود الدلائل التي أوضحناها في هذه المقدمة .

الهوامش :

(١) معجم البلدان المجلد الأول والثاني ص (٥٢٩ ، ٩ ، ٢١) لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٠هـ

(٢) لسان العرب لابن منظور الدار المصرية للتأليف والترجمة ٦٣٠هـ - ٧١١هـ

(٣) ديوان ابن الدمينة تحقيق الأستاذ (أحمد راتب النفّاخ) ـ مكتبة العروبة س. كنوز العرب وقدّم له الأستاذ (محمود شاكر)

(٤) صحيح الأخبار (ابن بليهيد)

(٥) مع الشعراء (الشيخ حمد الجاسر)

(٦) مجلة الجنوب العدد السادس والعشرون شهر صفر ١٤٠٦هـ

(٧) لقاء مع سعادة محافظ محافظة بيشة بالنيابة الأستاذ (حسين عبد الله آل زلفة)

(٨) إدارة التعليم بمحافظة بيشة للبنين الأستاذ (سياف عامر آل خشيل)

(٩) إدارة التعليم بمحافظة بيشة للبنات الأستاذ (عامر عمر المرشد)

(١٠) خطاب معلومات من مدير مطار بيشة الأستاذ (سليمان محمد الرواف)

(١١) مديرية الزراعة والمياه بمحافظة بيشة المهندس (محمد حامد الشنبري) . والدكتور (خالد المسلم) المشرف على تنفيذ سد خادم الحرمين الشريفين .

(١٢) مجلة الطيران المدني العدد الثامن صفر ١٤١٢هـ ص (٥٠) .

(١٣) جولة ميدانية قمت بها والتقيت بشيوخ القبائل وكبار السن .

بين بيادر وقرائها

بين بيادر وقرائها

التحرير

الأخ سعد فاضل .. جدة

مرحباً بك صديقاً لمجلة بيادر وصدرها رحب لاستقبال إنتاجك وأمثالك من الشباب فابعث ما لديك على عنوان المجلة .

نادي أبها الأدبي ص . ب ٤٧٨ أبها . عسير

* الأخت مزون عمر .. المدينة المنورة

بيت الشعر الذي تسألين عنه لأبي الطيب المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس وذلك من قصيدة طويلة يمدح فيها سيف الدولة الحمداني حين انتصاره وفتح حصن برزويه وعودته إلى أنطاكية يقول في مطلع القصيدة :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وما أنا إلا عاشق كل عاشق أعق خليليه الصفيين لائمه

إلى ان يقول :

وقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الإنسان من لا يلائمه

الأخ هادي عبده دغريري .. جازان

صفحات أقلام واعدة ميدان رحب لاحتضان إنتاجك وإنتاج أمثالك من الشباب فابعث بما لديك وسيجد الاهتمام والرعاية من هيئة التحرير .

الأخت عطيء فائز ناصر/ النماص

ولماذا التخوف من النشر ؟ كوني شجاعة وابعثي بما لديك وستجدين الصالح منه منشوراً على صفحات بيادر، أما اللوحات الفنية فالقرية التشكيلية بمركز الملك فهد الثقافي (المفتاحة) بما تحتوي من مراسم ورسامين يرحبون بإنتاج أي هاو ويقودون خطاك للإبداع والنضج فدعي التقوقع جانباً وابعثي بما لديك وسيجد العناية الكاملة .

الاخ مطر الغامدي .. الباحة

نادي أبها مفتوح للمبدعين ويسعى لاحتضان إنتاجهم من شعر ونشر مرحبا بك صديقاً لنادي أبها ولمجلة بيادر .

* المهندس الزراعي محمد حسن الزهراني ... الرياض

ولماذ الغرابة أن تكون شاعراً رغم اتجاهك للهندسة الزراعية ؟ فالشاعر إبراهيم ناجي كان طبيبا والشاعر علي محمود طه كان مهندساً نرحب بإنتاجك وأهلاً بك صديقاً في دنيا الشعر والأدب لنادي أبها ومجلة بيادر .

الأخ الاستاذ أحمد محمد الترابي شكراً لتواصلك مع مجلة بيادر وهي من القاريء وإليه وليس غريباً منك الاهتمام بما يخدم المواطن في منطقة عسير .. فقد عرفناك صحفياً ناشطاً وإعلامياً ناجحاً .

* الاخ عبدالله علي جلبان بيادر معنية بالشعر الفصيح والأدب العربي شعراً ونثراً.. لا داعي للتقوقع وزر جمعية الثقافة والفنون وستجد من مسئوليها كل التقدير والاحتفاء بإنتاجك.



ما قبل الوداع

ما قبل الوادع

علي حسن آل شعيب الشهراني

الأديب . . والشللية ومسئولية التجاوب

تزخر بلادنا ولله الحمد والمنة بكم هائل .. وعدد غير قليل من الأدباء والمثقفين الذين يحملون في نفوسهم وقلوبهم الهم الثقافي ويرعون المسيرة الأدبية في هذا البلد الكريم .. غير أن بعضاً منهم وقد أمده المولى بالموهبة وزود فكره وذائقته بقدر وفير من الزاد الأدبي شعراً ونثراً وبرز على الساحة الأدبية علماً بارزاً ورائداً من رواد الحركة الفكرية وذلك كله يلقي عليه مسئولية التجاوب مع ما يطلب منه في مجاله الذي يجيده غير أنه مع الأسف وربما عن غير قصد يقصر مساهمته على مجلة أوصحيفة معينة .. وذلك ما يدعو إليه انتماؤه للشللية التي كان لها مع الأسف دور عكسي في خدمة الأدب .. إذ إن مسئولية الأديب الكاتب الشاعر تملي عليه التجاوب مع ما يطلب منه المساهمة فيه من صحف ومجلات وجميع وسائل النشر وذلك بما يعود على الحركة الثقافية والهم الإبداعي بالخير والنماء .. إن الانضواء أو الاقتصار على المساهمة في صحيفة واحدة أو مجلة واحدة عملية لا تخدم الأدب بجميع أنواعه وصنوفه بل إنها من المثبطات والمعوقات التي تحد من بروز وانتشار أدبنا المحلي وارتياده لآفاق رحبة داخلياً وخارجياً وأنا هنا لا أقصد رواد الأدب الرجالي فقط وإنما اقصد رواد الأدب من رجال ونساء وذلك خروجاً من تصنيف الأدب بين الذكورية والأنثوية ولقد عشنا في بيادر تجربة عدم تجاوب الكثير من أدبائنا ومثقفينا رجالاً ونساء .. وأجزم أن ذلك لا يرجع إلى الإهمال المتعمد وعدم التواصل والتجاوب وانما نعلل ذلك بمشاغل الكاتب او الكاتبة الحياتية ..

إنني أحسد وسائل النشر من مجلات وكتب وصحف في كثير من بلادنا العربية وذلك يرجع إلى أن أدباء واديبات تلك البلدان يساهمون مساهمة فعالة في إمدادها بما تجود به قرائحهم من شعر ونثر بصرف النظر عن التخصص أو الانتماء حتى ولو كانت بدايات . وكما يقول المثل أول الغيث قطرة إنها دعوة صادقة لأدبائنا وأديباتنا ومثقفينا ومثقفاتنا إلى كريم التجاوب وصادق المشاركة الفعالة المثرية لأدبنا وثقافتنا على الدوام .


دار
للطباعة والنشر
جدة
تلفون ٦٧٠٠٣٣٣

